

الدكتور محمد حاج حسين

الجفاف الفني

بقلم الدكتور محمد حاج حسين

مأساة الفنان تبلغ ذروتها عندما تخمد جذوة الفن فيه ، ويكف عن الابداع الفني ويلف ويدور مجترا نفسه ، مكررا ما سبق ان فاض منه ، فلا عجب اذا راينا عبقريا مثل همنجواي ينتحر عندما احس ان معينه الفني نضب ، وافتقد في نفسه تلك القدرة السالفة على الابداع ، فاذا بها حاقدة هامدة لا تسري فيها تلك النار القدسية التي كانت تسمو بانتاجه الى افق يمور بالعبقرية .

والفنان الاصيل بطبيعته نزاع الى الكمال الفني ، فهو لا يكف عن التطلع اليه مهما كان عسير المنال ، صعب المرتقى فروحه اليقظة تدفعه اليه دفعا مضحيا بكل شيء حتى يصل اليه ، واذا اقترب منه ، واقبل الناس على انتاجه يجدون فيه اشواقهم ونفوسهم ، وانتفضت فيه حياتهم بكل افانينها بذل جهدا جبارا ليحتفظ بهذا المستوى الذي بلغه ، فامنيته تتركز دوما في التفوق الفني ، وهو يطلب المزيد من هذا الابداع ، فاذا جفت قريحته ، وتنكر له الفن حطمته المأساة ، ولاعه اليأس ، واحس بهذا الاسى الرهيب الذي يجعل حياته تافهة لا تحمل اي معنى ، فحياته تتركز في هذا الابداع الذي جعله هدفه في الحياة لانه يرضي حاسته الفنية ، وبالتالي ينعم في سعادة رضية لا يعرفها الا كل من فرغ من عملية ابداع فني ارضى بها نفسه ، وارتاح لها وجدانه .

والطبيعة البشرية قاصرة عن بلوغ الكمال الفني ، ولكن الفنان نزاع اليه ، همه ان يدنو منه ، وحياته لا غناء فيها ان لم يبلغه ، فهو يضحي في سبيله بكل شيء ، يكد وراءه ليتصيده ، ويتبتل في محرابه ، واحيانا يواكبه الحظ ، فيبدع اثرا فنيا يسمق الى الذروة ، فتصفق له الدنيا وتحدجه الشهرة ، ويحاول ان يحافظ دوما على هذا المستوى الرفيع ، او يتخطاه مدفوعا بقوة لا قبل له بها ليتفوق في ابداعه حتى اذا هبط عن مستواه ، اقبل النقاد على آثاره يجرحونها ، استبد به اليأس واستحالت حياته الى ظلام . والواقع ان الفنان اكثر الناس فهما لانتاجه ولهذا تستحقه المأساة عندما يكبو ، فيعمل لاستعادة مجده الغابر ، وكثيرا ما يتعثر ، ويهبط عن مستواه الذي عرف به .. وتمضه الحسرة ، وتند منه الانغام الفاجعة على هذا المصير السيء الذي آل اليه ، ولا يستطيع انسان ان يتصور هموم الفنان البالغة اذا ما شاء الحظ العاثر ان يؤدي به الى هذه النتيجة .

ورب قائل يحلو له الزعم ان الفنان لا يرى ناحية الضعف في انتاجه ، فعيناه معصوبتان بغشاوة صفيقة تمنعانه من النفوذ الى آثاره ، وتقديرها حق قدرها ، فهو لا يرى ناحية الضعف فيها ، وذلك لان انتاجه حبيب اليه ، اثير على قلبه ، لانه فلذة منه قبضته من روحه ، صب فيه خلاصة اعصابه ، وسكب فيه دمه ، ولهذا يرى كل ما يفيض منه يسبح في روعة باقية . والحق ان هذه النظرة سطحية ، لا تنفذ الى اغوار الحقيقة ، وقد تصدق على الفنان المتوسط . اما الفنان الاصيل ، فهو يدرك ادراكا واعيا قيمة انتاجه الفني ، ويحاسب نفسه عليه حسابا عسيرا ، فاذا تجانف عنه الابداع الفني ، وابتعد عن الكمال المنشود شعر به شعورا اكيدا ، لانه ــ بطبيعته ــ ناقد يدرك الجمال الفني بحاسته الفنية التي لا تكاد تخطيء ، فيصلى العذاب، ويفريه الشقاء ، ولا يستطيع ان يخلد الى مجده السابق الذي اثله بعبقريته ، فدائما يطلب المزيد ، فعند ميلاد كل اثر فني يتوخاه انضر واقوى من اخيه الماضي ، لانه لا يتطلع الى الماضي ، بل يرنو الى الحاضر ، والمستقبل ، فهو يريدهما اكثر وضاءة والهاما ، فالعالم الذهبي يكمن في انتاجه الجديد . هذه هي طبيعة الفنان الموهوب لا يقدر ان يحيد عنها قيد انملة فهدفه التفوق في كل اثر يبدعه ويسعى اليه بكل ما حباه الله من قوة ودفع والهام . والفنان مستعدا ان يضحي حياته في سبيل فنه ، فحبه لفنه سرى في دمه ، واصبح الرابطة الوثيقة التي تشده الى الحياة ، وتجعله يتشبث فيها ، وكل ما عداه ثانوي بالنسبة له .

والفنان المبدع يساوره الخوف باستمرار من هذا الجفاف الذي يئد شعلة الالهام فيه . واذا فقد ثقته بنفسه اضطرم به اليأس القاتل ، وتناوشته الارزاء ، فالثقة في النفس عماد الفن ، ولا يمكن للفنان ان يقر وتهدأ بلابله الا

اذا انطلق في عالم الابداع قوي الايد ، ملتهب الروح حتى اذا ما تنكرت له الاصالة الفنية سهل الموت في نظره ، فعماد حياته فنه ، وهذه الحياة نفسها لا معنى لها الا اذا كانت وقودا لهذا الفن حتى يبلغ الذروة التي يتوق اليها .

لقد كان جوتيه يتلهف على ان يموت ، وهو في شرخ شبابه كما مات صنوه شيللر، وفي اعتقادي ان هذه الامنية لا ترجع الى رغبة الشاعر العبقري في ميتة رومانتيكية تحف به في ريق الشباب لتكون أبلغ أثرا في الذكرى . كما حدث لشيللر ، بل هي تحمل في طياتها معنى بعيدا قد يكون راجعا الى أن شيللر قد مات ، وهو في اشراق عبقريته ، لم يعرف انتاجه الجمود والخمود . فهل ثمة مانع يحول دون جوتيه والتلهف على هذه الميتة ، وعبقريته في شبابها وتوقدها ؟

الا يخشى كل فنان في اعماقه هذا الجفاف الفني الذي ينحدر اليه ، فيغله عن الابداع ؟ ويخيل الي انني لم اذهب بعيدا في حدسي رغم ان عبقرية جوتيه ظلت محتفظة بعنفوانها المشبوب حتى آخر حياته .

ان الفنان يكتنه نفسه اكثر من الاخرين ، فهو يعلم موسم الاخصاب والتدفق فيه ، كما يدرك موسم الجفاف الذي يذبله ويذويه ، فنفسه كتاب مفتوح امامه يقرأ فيه اسرارها ، ويتبين سرائرها .. وهو عندما يحس نذر الجفاف لا يستسلم اليه ، بل يحاول ان يتفاداه ويسحقه ، فينكب على الانتاج الكثير احيانا ليقنع نفسه والناس بأن معينه الفني لم يجف ، وكثيرا ما يبوء بالخيبة ، ولكن هذه الخيبة لا تقعده عن مواصلة الكد في سبيل انتاج افضل واروع ، فهو متشبث بفنه لا يريد ان يتضحى ظله ، او يبدو عليه التهافت .. ولكنه — لسوء حظه — لا يستطيع الابداع ، فالجفاف قد هيمن عليه ، واحال قريحته الى جدب ، وحيويته الى جمود ، وفنه الى اجترار .. واملة الى يأس مظلم ... وها هو يرى ازدراء القراء عنه ، وهجمات النقاد تلسعه .. وهل لحياته معنى بعد هذه الكارثة الماحقة ؟

وهذا سنكلر لويس — الروائي الاميركي الشهير — عندما نال جائزة نوبل عام ١٩٣٠ قال في خطابه الذي القاه في اكاديمية السويد بهذه المناسبة انه يحس انه بلغ من السن مبلغا لا يستطيع معه ان يسهم في دفع عجلة الادب الاميركي الى الامام كما يعمل ادباء الشباب المبدعون كهمنجواي ، ووليم فولكنر ، واضرابهم من الشباب النابغ الذي شق طريقه في عالم الابداع .. وعاش بعدها عشرين عاما لم يكف لحظة عن العمل الجاهد ، والتأليف المستمر ، ولكن — لسوء الحظ — قد ادرك الجفاف الفني ، فلم يستطع أن يبلغ المستوى الفني الذي بلغه في روايتيه الشهيرتين بابيت ، والشارع الرئيسي ، فانتاجه قد هوى ، وفقدت عبقريته بريقها الذي جعله اول كاتب في اميركا ارسخ جذور الرواية الاميركية وجعلها تخرق الحدود ، وتصبح عالمية .

والواقع أن مأساة هذا الكاتب لا حد لها ، فقد لمع اسمه حتى اضحى اكبر كتاب أميركا ، ثم هوى من شاهق الى الحضيض ، واليوم ، وقد مضت على وفاته سنوات قليلة يكاد لا يذكره احد ، فالنقاد اهملوه ، ووجدوا فيه كاتبا من الدرجة الثانية ان لم تكن الثالثة ، وهكذا هوى النسر من قنة الجبل مهيض الجناح ... ومأساته بلغت ذروتها عندما أخمد الجفاف جذوته المتقدة .. ورغم الاربعين كتابا التي الفها ، ولاقت رواجا منقطع النظير صهره النقد ، واحاله الى هباء .

والحق ان الانتاج الفني لا علاقة له بالشهرة ، فهنالك كثير من الفنانين الاصلاء ازور عنهم معاصروهم ، ولم يحظوا بالمجد الذي يستحقونه ، ثم جاءت الاجيال التي اعقبتهم ، ففهمتهم ، واعطتهم حقهم ، واصبحوا خالدين يقبل عليهم الناس في تجلة وقداسة ، كما ان كثيرا من الفنانين نالوا شهرة زائفة ، وحفيهم المجد من كل صوب ، ثم غربلتهم الايام ، واصبحوا نسيا منسيا فلا يبقى الا الانتاج الاصيل ، فهو وحده الذي يصمد للزمن واحيانا كثيرة تعمل ظروف خاصة في رفع اسم فنان الى الاوج ، بيد ان هذه الظروف سرعان ما تتبدد ، ولا يبقى سوى الفن الخالد . والامثلة على هذا لا تحصى ، ويكفي ان نتذكر روديارد كبلنج الذي كان يعد أول شاعر في انجلترا ، وها هو الآن يتراجع الى المرتبة الثانية بعد ان خف البريق الذي كان يحيط به كشاعر الامبراطورية البريطانية .. وها هو سومرست موم الكاتب العالمي الذي لم يلاق كاتب ما لاقاه من مجد وشهرة وثراء بسبب اقبال الناس على انتاجه الخصب ، ومع هذا يرى فيه النقاد قصاصا عاديا موفقا ، عرف كيف يفهم نفسية الجماهير ، فيقدم لها غذاء شهيا راق لها ، ورغم هذا لا يسمو الى مرتبة القصاصين العباقرة الذين حلقوا في سماء الابداع .

ولا بد لنا ان نتساءل .. هل تشيخ العبقرية ؟ والواقع يدلنا على انها قد تشيخ وتهن وتتبدد ، وتخونها القدرة على الخلق الفني ، ولا تحتفظ بقوتها ، وفتوتها الا اذا بلغت مبلغا عظيما من القوة والمضاء ، والملاحظ ان العباقرة الذين يستطيعون المحافظة على مستوى انتاجهم الرفيع هم قلة ، ومن هنا جاء تكرار الفنان لنفسه حتى قيل ان العبقري لا ينتج سوى كتاب واحد في حياته وانتاجه الآخر ليس سوى تكرار له ، والواقع انه من المستحيل الا يكرر الفنان نفسه ، بل نذهب الى اكثر من هذا ، فمن الصعوبة بمكان ان يحافظ على مستوى هذا التكرار ، فسرعان ما ينهار ، وتخبو عبقريته .

ان الابداع الفني أمر عسير ، صعب المنال لا تبلغه الا القلة الممتازة من افذاذ الفنانين الذين همست العبقرية اسرارها في ارواحهم الظميئة الى الجمال والخير والحق ،

ومما لا مراء فيه ان العبقري يبذل جهودا مضنية في كل اثر يبدعه ليتفوق به ويسمو ، ولكن طبيعة الاشياء تحتم عليه الا يبلغ ما يريد .. وهذا فيكتور هيغو رغم عبقريته المضيئة اجمع النقاد على القول ... ان ادبه سيظل خالدا تقرأه الاجيال ، ولكن هذه القراءة ستقتصر على مختارات من ادبه المتعدد الالوان ، هذه المختارات التي توهجت فيها عبقريته ، وحافظت على مستواها الفني الرفيع ، اما الكثرة من آثاره ، فلن تصمد للزمن ، وسيصيبها الذبول والفناء .

لقد حاول الباحثون تفسير عملية الخلق الفني ، ومعرفة اسسها النفسية ، ورغم ما اتوا به من اراء صائبة قامت على الدراسة والملاحظة الدقيقة للفنانين ، غير انهم — في الحق — لم يستطيعوا ان يفسروا هذه العملية الخارقة تفسيرا صحيحا تطمئن اليه النفس ، فاكتناه سرها العويص صعب المرام ، لانها عملية معقدة ، ولا نملك امامها سوى العجز .. لنفرغ الى القول انها هبة من الله تعالى يخص بها بعض عباده الممتازين ليريقوا على الدنيا الجمال ، وينثروا فيه الخير والحب ، ويسفحوا على الانسانية هذا الابداع الذي يدفعها قدما الى حياة تترقرق فيها العذوبة والنقاء.
ومعرفة الاسباب التي تؤدي الى جفاف هذه العملية العسراء ونضوبها مسألة اكثر غموضا والتواء وتعقيدا ، فليست هنالك مقاييس علمية دقيقة لمعرفة هذه الاسباب. لماذا يعتريها الخمول ، ولماذا يذويها الفناء ؟ لم لا تزيدها الايام نضجا وقوة ، وتترعها بهذا اللهب القدسي الذي يؤججها حتى تحافظ على مستواها الرفيع ؟ اسئلة عويصة لا نستطيع الاجابة عليها اجابة شافية . وكل محاولة لتفسيرها ، لا بد ان تبوء بالخيبة ، فنحن امام مأساة العبقرية في شموخها وسقوطها في كل زمان ومكان .

ومنذ القدم ، والناس حيارى في ادراك هذه العملية ، فاليونان ردوها الى ربات الشعر الذي صورهن هوميروس يغنين للالهة صحبة ابولون اله الشعر ، وذكر الشاعر هزيود انهن بنات زيوس اله الالهة ، وان عددهن تسعة . وهكذا علل اليونان عملية الخلق الفني بقوى خارقة ردوها الى زيوس ، ثم الى ديونيزوس اله الخمر ، قبل ان يهتدوا الى ابولون . وحاولت الفلسفة ان تدرس هذه العملية ، ولم تأت الا بافتراضات وهمية لا تستطيع ان تنير سرها الغامض ، فافلاطون يرى ان الشعراء تستحوذ عليهم الشياطين ، فهي تلهمهم روائعهم ، ويجمعون انغامهم الشعرية من اودية ربات الشعر ، فارواحهم تطير اليها ، وترتادها وتقبس منها هذا الالهام الذي يفجر النغمات العذاب على السنتهم ، وكذلك فعل الرومان متأثرين باليونان الذين تتلمذوا لهم ثقافيا فالآلهة هي التي تنفث الشعر الرائع على لسان الشعراء .. انه الهام يأتي من عالم بعيد . واكتفى العرب بعبقر ارض الشياطين الذين يلقون الشعر في روع الشعراء ، حتى انهم سموا شياطين بعض الشعراء ، واختلقوا القصص التي تروي هذه الصحبة بين الشاعر وشيطانه ، وحددوا شيطاني الشعر الجيد والشعر الرديء ، وهما الهوبر والهوجل ، وظلت هذه الافكار مسيطرة على شعراء العرب حقبة مديدة من الزمن .. فالالهام الذي يأتي من عالم بعيد هو النار التي تؤجج عملية الخلق الفني ، والشعراء تتملكهم رؤى بعيدة هي التي تنفث على السنتهم الشعر .

وفي القرن التاسع عشر يتحدث كثيرون من الشعراء عن هذا الالهام ، ففيكتور هيغو يؤكد انه عندما ينظم شعره تتراقص امامه على الورق كائنات لطيفة في نهاية الرقة والجمال ، فهي التي تفجر ينابيع الشعر في اعماقه ، ووليم بلايك الشاعر الانكليزي الصوفي يحدثنا بانه عندما كان يذهب الى الغاب ليبدع شعره في حضن الطبيعة كانت مخلوقات لطيفة ذات اجنحة ذهبية تقفز على افنان الشجر تجاذبه الحديث . وكثير من الشعراء الملهمين ذهبوا الى هذا الالهام البعيد . وفي رأيي انهم صادقون في دعواهم ، ففي غضون الانتاج الفني يغيب الفنان عن وعيه ، وتنتقل روحه الى عالم بعيد ، فهو ينفصل عن واقعه ليعيش بكليته في الجو الذي يبدعه ، ويندمج فيه حتى لا يحس بوجوده ، ويتعذب في تنسيق فنه ، فلا غرو اذا خيل اليه ان هناك كائنات لطيفة يراها تجاذبه الكلام ، وتهمس في قلبه الالهام ..

وحاول العصر الحديث ان يدلو بدلوه في تفسير عملية الابداع الفني ، وعصرنا يتسم بالروح العلمية ، فلا يعترف بالآلهة والشياطين ، وشجب عملية الالهام التي تأتي من عالم بعيد .. ورأى ان هذه العملية المعقدة لا تبدأ مع الفنان عندما يحاول الابداع ، فهي تبدأ قبل ذلك بكثير ، تعيش في اعماقه وتنسج خيوطها الدقيقة في وعيه ولاوعيه حتى اذا نضجت وحان ميلادها تساقطت على الورق كما تتساقط الثمرة الناضجة ، والباحثون يردونها الى تفسيرين اجتماعي ونفسي ، فاصحاب المذهب الاول يعللونها بالمجتمع فليس الفن سوى تمثيل لنزعات الناس وتقاليدهم ، فهو يجسم طابعا حضريا معينا ، والمذهب الثاني يرى انها عملية فردية يمكن تفسيرها اذا عرف الباحث بما سبق الابداع من قراءة ومشاهدات وتأملات لدى الفنان ، ومدى المشكلة التي تعيش في ذهنه .

وهكذا نجد ان كل تفسير لهذه العملية مهما بلغ من السعة والعمق لا يمكن ان يبدد هذا الغموض الذي يكتنفها . وكما اننا لا نستطيع سبر غور هذه العملية كذلك لا نستطيع ان نفهم مأساة الفنان في هذا الجفاف الذي يبعده عن الاصالة فليس هنالك ضربة يتلقاها الفنان مثل هذه الضربة القاضية التي تجعل قريحته كليلة ، وجذوته خامدة ، وتحيل حياته الى جحيم ، بل تقضي عليه بالموت .

مكة المكرمة **محمد حاج حسين**

فـي عيـدهـا

في عيدها كانت سمائي تبرق
وكان همي يطرق
يمتد حول الارض مع روادها
حاموا وراء المركب
لو اوقفوا .. لو ضيقوا
لو اوماوا .. لو اصعقوا
والموت ذاك الارعن
قالوا الدنى بلا مدى
ونحن جوف نطرق
نمشي بلا قلب بلا آمالنا
نقتات دودا مالنا
اجوافنا دمارنا
والارض تلك الجانحه
وتخلـق
من فوق حرف كالعصا
لا ماء فيه ولا رؤى
يا قبرها يعلوه زهر يعبق
فيه الصدى يعلو ودوما يأرق
ينهار صرح يخفـق
صـوت خبـا
وبيتنا برد صقيع ضيق
كأرنب لف الاذن
فـي الزاويـه
كنقطـة
صفر وصفر يابس لا يخاق

في عيدها كانت سمائي تبرق
وكان همي يطرق
حكاية قصيرة
كحبة ملفوفة بلا ازل
كلفتة تجر من ورائها اعلى القلل
تجرها .. تجرها
وتحفـر

تلوي يدي وأبحث
عن عشبة حيرى المنى
لأنقيها باليـد
لكـن يـدي
اصابعي بلا يـدي
ودربنا اشواكنا
حياتنا كموتنا لا نشهق
وانملي جبالنا
يدي اخدرار كالامل
عيني يدي
يـدي قدم
كلعبة معجونة لا تورق
لم تنهها يد الاجل
من صنع امي هيكلي
لوني ورأسي والعقد

في عيدها كانت سمائي تبرق
وكان همي يطرق
أدافع ..
أدافع ..
أصد عنها ملتقى
من الـردى
في جولة من اجلها
أصد عنها حكمه
وأحدس ..
وأهـدس
وأنحني ...
أمي فلن يرضى سواها بيتنا
ففاشم حكم الذكر
وساذج مثل القمر !
كالطفل يقتات الضرر
وكالحجـر

ثريا ملحس



نظير زيتون

ابو الحسن محمد علي الطاهر

بقلم نظير زيتــون

* * *

قلم ذهب . ومداد لهب . وخلق عجب . وحرفه عربي النسب ، زكي الحسب . مضري الغضب . اصيل الادب . وجهاد مصصل ذو لجب . يمت الى المروءة بالف سبب . صاب عنيد لا يأخذه فتور ولا وصب . فما تأرج الوفاء الا كان له به العبير واللقب ، وكان له بالفضـل المسماح ما يغني عن النشب ، وكان له بالتضحية المثلى منتهى الارب ، وخير ما احتسب ..

سلخ الخمسين والستين في مقارعة الاستعمار . يصليه حربا حروفها من نار . حروف كمضاء المهند البتار . في كف عملاق جبار . ينهال به ذات اليمين وذت اليسار . دفاعا عن الحرية والاحرار . وحفاظا على قداسة التـراث العربي الزهار . من عبث الطغاة الاشرار . لا يثنيه وعـد مكار . ووعيد غدار . ولا يفت في عزمه سجن وتشريـد واسار . بل يمضي قدما بايمان راسخ لا يزعزعـه رعـد واعصار . ولا يتطرق اليه شك وعثار . والايمان عناد نير واصرار . ومنار تهتدى به البصائر والابصار . وسيف لا ينبو في كف المكافح المغوار ..

سلخ الخمسين والستين في النضال القلمي النبيـل ، ومكافحة الاستعمار الوبيل ، ومجادلة السياسي المشعوذ العميل ، والوطني الزائف الدخيل . مضحيا في بذل جزيل متفانيا غيورا كأنه وصي وكفيل . مرتلا رسالته الحرة اوقع ترتيل ، ابيا كريما في سراوة خلق اصيل . وندبا منجادا في مروءة همام أثيل . واذا « دار الشورى » في القاهرة موئل حفيل ، وظل ظليل ، ومربع خليل وسلسبيل ونخيل، وكأنها حرم بجيل ، يرد الطرف وهو كليل ، فهي للاحرار والمضطهدين حمى وسبيل . وهي للمستنيرين علم ودليل، وهي للحرف العربي زيت وقنديل . وهي للوطن العـربي قرآن وانجيل ..

وكم « للشورى » في سبيل الحريـة والاحرار مـن صولات وجولات . وكم لها من صفحات مشرقات . فهـي طورا نسيمات ونفحات وبسمات وعندلات . وتارة صيحات وصرخات . ونيران مشبوبـات . وحـروف عاصفات . وبركان يقذف الحمم المتسعرات ، وللحق غضبـة تهز اقلاع المستعصيات . وللحق صولة متأججة الوثبات . مجلجلة النبرات ، وللحق ثورة على الباطل ، وان مدججا بالحراب والبندقيات ، والدبابات والطيارات . والاساطيل الماخـرات ..

وكم « للشورى » من موقف رائع اللفتـات . جـريء اللمحات . نافذ النظرات . متعالـي الجنبات . في اياد بالعوارف مغرورقات . وعيون ترقرقت فيها للمودات آيات وآيات . وسواعد مضطرمة النبضات . تجردت لدفـع الظلامات ، ونصرة الحق في زحمة الشدائد العاتيات ..

ولقد خاض ابو الحسن على صفحات «الشورى» معارك قومه قطرا فقطرا ، من المغرب الى الجزائر وتونس وليبيا ومصر وفلسطين وسورية ولبنان والعراق ، وشبه الجزيرة العربية من الخليج العربي شرقا الى البحر الاحمر جنوبا ، فبحر الظلمات غربا . خاض معاركها مقداما غير هياب ، يـوم كان الاستعمار وحشا اسطوريا بمئـين الرؤوس والاذناب . مشحوذ الاظافر والانياب . يتقيأ النار والحديد في تنعاب الغراب ، وقد ارتمى بكلاكله على صدور الشعوب مزمجرا زمجرة الغلاب ، يمتص ما ساغ ويلتهم ما طاب . وكأنه قدر في كتاب . وشيطان في محراب ، فما تهيب ابو الحسن ولا لانت شكيمته ، بل هب هبـة الغضاب ، يناقشهم الحساب ، مناضلا جسورا في حرفه الوثاب . وايمانه العربي الهباب ..

ولقد ترصدوه وتربصوا به وسلبوه عيشه الرحراح . فكانت له جراح . تفتحت عن حروف فصاح . وكانت له انراح ، هي في مغزاها افراح . ولقد سقوه من التعذيـب والتسهيد ثمالة الاقداح . وزجوه في غياهب السجـون كمجرم سفاح . وهو الكريم الندب المسماح . وامعنوا في البغي لعلهم يطفئون نور ذلك المصباح ، ولعلهم يخنقون ذلك الصوت الحر الملحاح ، وما دروا ان ليل الظلم مهما يطل فلا بد ان ينجلي عن صباح ، وان للحرية والقومية والانسانية ايمانها الوضاح ، وزندها النفاح ، ونشيدها الفتاح ..

وكان اذا افلت من براثنهم ، بثوا عليه العيون والارصاد.

وبصبوا له حبائل الصياد . فيعمد عندئذ الى التمويه والخديعة ، متنكراً في زي حبشي حالك السواد . او في عمامة شيخ ولحية وجبة ، وخطى اعتز ز واعتداد . او في شكل صعيدي نشيط ممراح تلعاب حديد الفؤاد . او في متشرد متسكع تشف اسماله عن امجاد واحقاد . او في اعرابي جحجاح بعقال وكوفية وعباءة شيخ من اياد . وتراه حينا يتحدى الرقباء وعينه لهم بالمرصاد ، ويمكر بهم ويرمقهم شزرا ماردا على المراد . ويسير بخطى وئيدة وفي النفس كبرياء وعناد . وفي الشفتين من اللعنات آحاد في آحاد ، وفي الصدر زمزمة آساد . ويمر الشهر تلو الشهر بين وساد وسهاد . وتجوال مجهول الابعاد . مستنبطا للخديعة افانين الاضداد . حتى اذا صفا الجو واطمأن الى السلامة عاد الى الجهاد . بحروف كأنها شوك القتاد ، في حلاقيم المستبدين الاوغاد ..

وكانت فلسطين وهو ابنها البار تعاني محنتها الكبرى ، وقد انتابتها الشدائد تترى . وتوالت عليها العسرى بعد العسرى . وتألب عليها المتآمرون ولا من يحس ولا من يرى . فينادي متلهفا متفجعا في صرخة حرى : وافلسطيناه . يا وطنا اضعناه . ويا تراثا قدسيا فقدناه ، ويا ذبيحا خذلناه وغدرناه .. واعرباه ، وآاسلاماه . وامسيحاه .. كم تركنا للابناء من لعنات تتقاذفها الشفاه . وكم تركنا للتاريخ من عار يلطخ الجباه فوآتعساه ، ويا ويلاه ..

* * *

ولقد التف حول ابي الحسن في دار « الشورى » القاهرية عدد كبير من زعماء السياسة العربية ، والعاملين في القضايا الوطنية . من طلاب الاستقلال والحرية . ومعظمهم لاجئون او اشباه لاجئين ، نزحوا عن اوطانهم بعدما اضطهدتهم السلطات الاجنبية ، وطاردتهم واخذتهم بالقسوة والشدة ، ولكن وجدانهم القومي ابى عليهم الاذعان للامر الذي فرضته القوة المسلحة ، فنقلوا ميادين نشاطهم الى القاهرة ، وكانت مصر على ما تعانيه آنئذ من جور الحكم الاجنبي ، قبلة الانظار ، وملجأ الاحرار ، وملتقى الوطنيين الابرار ..

وكان لهم في ابي الحسن وجريدته ذلك الصديق المعوان . وذلك الاخ الاريحي الجنان . وذلك الرفيق المتفاني في رعاية الاخوان . يتعهدهم بجليل المساعي ، ويرفدهم ببيض الايادي ، ويدفع عنهم شر العوادي ، ويفرج عنهم بما ينقع النفوس الصوادي ، وابو الحسن هو دائما ابو الحسن بصدق الولاء ، وكبرياء الوفاء ، والغيرة على الاصدقاء ، ورفعة الاباء . هو دائما ابو الحسن بوجهه الوضاء . وقلبه المعطاء ، ويده البيضاء ، وجبهته الشماء . وهمته القعساء ، هو دائما ابو الحسن في السراء والضراء ، والعسر والرخاء ، لا يقبض يده على اللأواء ، ولا يتصام عن نداء ، ولا ينسى ابدا ما يحمله من جلال الرسالة الزهراء ، وكرامة جراح الشرفاء . في معارك الظلام والضياء ، والمسكنة والسناء ..

عرفنا ابا الحسن محمد علي الطاهر أول ما عرفناه على صفحات جريدته الشورى حين كنا في مهجرنا البرازيلي نتحلق في الاندية ، وننصرف الى قراءتها بعناية ورغبة . كانت اجرأ الصحف الوطنية واقواها شكيمة في دحض اباطيل الاستعمار والكشف عن الوجوه المبرقعة بالوطنية ، واصرحها في تفسير دقائق القضايا العربية وحقائقها ، ولا اغلو اذا قلت انها كانت دليلنا الى الزعماء العاملين في الحقول السياسية ، وسبيلنا الى استجلاء الحركات القومية ، والتيارات الحزبية . وكان الامير شكيب ارسلان، فسح الله له في الجنان ، يراسلها من جنيف ، ويؤثرها بغرره ودرره وخطرات فكره . ويخصها بزمزماته وشظايا حملاته ، في غضباته وانتفاضاته ، ونفحاته وعندلاته ، ولعل ابا الحسن هو اول من نعته بامير البيان . فجرى اللقب بعدئذ على كل لسان . وكانت بينهما أواصر ود وريان، لا يفصمها مكان ولا زمان ..

واذا كنا قد رأينا في صاحب الشورى ذلك الكاتب السياسي الواسع الاطلاع ، الشديد الاضلاع ، الواسع الباع ، في قلم مطواع ، تأنس بصريره النفوس والاسماع ، فقد رأينا ايضا ذلك الناقد الساخط اللاذع ، والزاجر الوازع ، وناسج النكات البارع ، الى وصاف طريف ، في حس رهيف . وحرف تريف ، وذوق لطيف ، وكأنه مصور نافذ النظرات عميق الشعور ، يجمع بين المنظور وغير المنظور ، ويحيط بالمعلوم والمجهول ، وكأنه رسام يعبر عما تختلج به النفوس من محسوس وغير محسوس . وله في مؤلفاته فنون ودروس ، فتشوقك بعد هذا قراءته ، وتعجبك وضاحته ، وتفريك ظرافته ، وتشرح صدرك فكاهته ، وما ألبقه نديما تحلو منادمته ، وسميرا تزهو مسامرته . وتراه يأخذك بين جد وهزل . الى القول الفصل . في اسلوب جزل ، ومجنى سهل ، واذا انت بين شهد النحل ، وكأس الخمر والخل ، والماء والظل ، وعقل الشيخ ومرحان الطفل ، وهو اسلوب لابي الحسن اصيل ، لا يدانيه فيه مثيل ولا عديل ..

* * *

ثم دارت الايام دورتها ، ووثبت الاقطار العربية وثبتها . واستردت حريتها وعزتها ، وفرضت على الاستعمار بطولتها ، ورفعت المجد الويتها ، واذا باولئك الذين كانوا منكوبين ولاجئين ، واشباه لاجئين في مصر ، ممن صادقهم ابو الحسن ورعاهم بقلمه الحر ، ودفع عنهم العسر والضر، اذا باولئك الذين كانت لهم دار « الشورى » موئلا حفيلا وظلا ظليلا ، يرتفعون الى مراتب الوزراء ، ورؤساء الحكومات ، ومجالس النواب ، ورئاسة الدولات ، يتصدرون في المحراب ، ويقودون الاحزاب ، وتزدهيهم نشوة السلطان والالقاب ، واذا هم الحكام واصحاب النهي

و لامر (١) وسبحان من فجر الماء من الصخر . ولف الظلمة بشعاع الفجر . وكسا عري الروض بالزهر . وفلق الصدف عـن الـدر . .

ويا لاحكام الله كم تنطوي على سر مدفون بسر ، يحار في فلسفتها الفكر ، فكيف نفلسف الخير ، وكيف نفلسف الشر ؟ والا فكيف تهبط النعمة على قوم ، وتنصب النقمة على قوم ، وكلاهما في البذل والفضل سواء . أهذه طبيعة الاشياء ؟ أهذا هو منطقها والقضاء ، تحرم من تشاء ، وتعطي من تشاء ، بين اكفاء وغير اكفاء ؟

فلقد جاهد ابو الحسن محمد علي الطاهر اقسى الجهاد وابره . وخاض معارك امته العربية ، في دنياها الواسعة ، ولقد أضطهدوه وسجنوه وشردوه . ونغصـوا عيشـه ، وتوعدوه . فاحتمل الاذى صابرا مكابراً في سبيل وطنـه وامته ، فماذا كان حظه ؟ وماذا كانت مكافأته بعد ما استرد الوطن السلطان ، وحطمت الامة سلاسل الطغيان ، وانتصبت سيدة في الايوان ، في هالة من السؤدد الجذلان ، والتاريخ النشوان ؟

ماذا كانت مكافأة هذا المناضل السخي ، والمجـاهد الوفي ، والمقدام الابي ، والصديق الاريحي ، ماذا كان حظه من الناحية المعنوية على الاقل ؟

اخجل لامتي ان اجيب عن هذا السؤال . .

ورضي اباء الكبرياء لابي الحسن محمد علي الطاهر ان يكون زارعا غير حاصد ، لا له ولا عليه . . وعاش الدجل السياسي والصحافي والادبي ، وعاش الرياء الاجتماعي والنفاق الوطني . . .

ثم دارت الايام في دنيا العرب دورة جديدة ، اسفرت عن بروز مدرسة قومية حديثة ، هي المدرسة العقائدية ، لتي نسفت المدرسة الوطنيـة البرلمانية ، وهي المبدأ والاصل ، وزحزحت رجالاتهـا ، وانكرت عليهم كل مـا اسدوه من فضل ، وما جردوه مـن عزم وتفان ونصل ، ولكن لكل عصر عقل متجدد . ولكن ثورة طموح متوقد ، وهدف متجسد ، وانطلاق متجود وحكم متسدد متسود . وكان بدهيا ان تتغير المعاني والمفهومات ، وتمرع الاجتهادات والتفسيرات ، وان تنطوي من التاريخ السياسي صفحات وآيات ، وسائر من ضمهم من رجالات . .

وكان طبيعيا بعد هذا ان تضيق رقعة الدنيا العربية في وجه ابي الحسن ، وقد انسدت امامه الابواب ، على كثرة الاخوان والاصحاب ، فاذا اقامته لبنانية ، وجنسيتـه مغربية ، وخمرته تونسية . .

* * *

ما كتبت هذه الكلمة لاشيد بذكر ابي الحسن محمد علي الطاهر ، ولا لانوه بمآثره الوطنية ، ومواقفه الجريئة الابية ، وعوارفه السخية ، وسائر ما اتصف به من الاريحيـة والحمية ، ما كتبتها لارصع مفاخره بجوهرة جديدة ، أو أزيد قلادته بدرة فريدة ، فحسبه ما يحمل في جوانحه من القيم المثلى ، التي لا تفتقر الى تزكية وثناء ، ولا تحجبها سحابة دكناء ، ولكن ضميرا عربيا انسانيا ابى علي السكوت ، وللحق في ذمتنا عهد لا يعرف الاخلاف ، وميثاق لا يتطرق الى حروفه ذبول وجفاف ، وواجب ناداني فارسلت كلمتي مصحوبة بتحية اخوية ، صداحة سنية ، صادقة وفية ، والكلمة الحلوة اوقع في نفس المهـدي ، منها في نفس المهداة اليه ، واشهى لقلب طارحها منها لقلب المطروحة عليـه . . .

حمص — نظير زيتون

(١) كانت دار « الشورى » بالقاهرة مقيلا ومقرا لعدد من كبار رجالاتنا المجاهدين خلال الاربعين عاما الماضية ، على ايام تشريدهم وغربتهم فـي مصر ، وكان منهم السيد شكري القوتلي رئيس الجمهورية السوريـة سابقا ، والسيد الحبيب بو رقيبة رئيس الجمهورية التونسية حالا ، وقبلهما الملك ادريس السنوسي ملك ليبيا الحالي ، والامام محمد البدر عندما كان وليا لعهد اليمن ، وسلطان لحج السابق علي عبد الكريم . الـخ . . . .

عودة الربيع

مهداة الى صديقي الشاعر فؤاد الخشن تحية لملحمته «ادونيس وعشتروت»

سار طيف الربيع في ارض لبنان الها يدير الهوى باجمل كأس
وتنـاغى زهـر يهيم بزهـر — وهزار يشدو باعـذب جرس
والصبايا سائل اين « فؤاد » — هـائم الروح بين حسن وحس
اين هـدب يظل يغـزل ذهلا — شاعريا مـا بين صمت وهمس !
مبـدع الرائعـات من نادر الشعر عـذارى مـا ملن يومـا لرجس
هل هجرت الربيع والطيب والشعر وعفت الهـوى طفـولة غرس
قيـل هـذا !.. فارجعتـك حسان افتـديهن يا فـؤاد بنفسي
بينهن الالهـة البكـر فينوس تايـح السنـا برفـة خمس
فيفيـق الغرام في قلبـك النـاسي لهيبـا يضيء هيكـل قدسي !

الشارقة — صقر بن سلطان القاسمي

طبقة الفهماء

بقلم حسن الكرمي

من « العروة الوثقى » في لندن

***

قد ذكرت في مقال سابق ان الرواقيين بين مفكري الاغريق القدماء سعوا الى التخلص من مساوىء المجتمع الذي كانوا يعيشون فيه بواسطة ضبط النفس والسيطرة على السلوك وبواسطة ممارسة قوة الارادة ومتع الشهوات . وكانوا بذلك يعزلون انفسهم عن مجتمعهم ويهتمون بمصلحة اشخاصهم الذاتية . وعلى العكس منهم مفكروا القرن الثامن عشر في اوروبا عامة وفي فرنسا خاصة في عصر التنور. فان هؤلاء المفكرين كانوا يدركون ان اصلاح مجتمعهم الفاسد لا يمكن ان يتحقق بالمجهود الفردي وحده كما كان يظن الرواقيون، بل لا بد من احداث تطوير عميق في ذلك المجتمع وتغيير النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية حتى يتسنى للفرد ان ينال ما يصبو اليه من رفاهية وتنعم بالمعيشة ، ويكون له مجال لاثبات موجوديته واستيفاء شخصيته . فهم على نقيض من الرواقيين يرون ان الفرد مكلف باستعمال عقله وجسمه لتحوير محيطه الخارجي وليس لتحوير رغباته وشهواته . فالعالم الخارجي في رأيهم هو الذي يجب ان يتغير وليس العالم الداخلي في نفس الانسان لان الانسان مقدم في الاعتبار على المحيط، ولانه هو العاقل المفكر القادر على وضع النظم الجديدة بدلا من النظم البالية، ولان سعادة الانسان في هذه الحياة هي الهدف الاول . ولكن هذا الهدف لا يمكن الحصول اليه الا اذا تضافرت جهود الافراد معا في مجتمع ما ، وحينئذ لا يصبح الهدف هدفا فرديا بل يكون هدفا جماعيا يشترك في الوصول اليه المجتمع بكليته ووحدته المتكاملة . وهذا هو الذي ادى الى ظهور الفكرة الانسانوية Humanism في اوروبا ، وخصوصا على يد الفيلسوف الفرنسي اوغست كنت في القرن التاسع عشر بعد اخفاق الثورة الفرنسية . والمهم في الامر أن الاهتمام بالفرد بذات حدته اصبح نقطة الانصراف في التفكير الفلسفي ، وان الرجل العادي، دون الملك او الاقطاعي او كبير رجال الدين او الامير ، اصبح موضع التقدير والعناية من اصحاب الفكر . ومعنى ذلك ان الرجل العادي اصبحت له كينونة تستحق الرعاية والانتباه ، واصبح هو بنفسه شاعرا بوجوده المنفصل عن مجتمعه وبالواجبات تجاه معيشته وصلاح حاله . وبدلا من ان يكون المجتمع وحده هو الذي يشغل اذهان المفكرين من حيث اصلاحه وتنظيمه ، أخذ الفرد يشاركه في هذا الاهتمام ويحاسبه حسابا عسيرا اذا جار عليه او هضمه حقه في العيش بامان وراحة بال . فكأن سقراط قد بعث من قبره ، وكأن فلسفته الداعية الى اهتمام الانسان بنفسه قد عادت الى الوجود .

ولعل الرجل العادي او العامي في السابق كان ينظر اليه نظرة منحطة ، ورثتها الاجيال عن الفلسفة الافلاطونية . فان افلاطون كان يقسم الوجود الى طبقتين : طبقة الكينونة المثالية وطبقة الصيروره العادية . فالاشياء عنده تكون اما من الطبقة المثالية واما من الطبقة العادية . مثال ذلك: الجمال بمعناه المجرد هو من الطبقة المثالية ، وصورته لا تحول ولا تزول وتدوم الى الابد . والجسم البشري وان كان جميلا ، هو من الاشياء المتغيرة المعرضة للنمو وللفناء ، وهو أحط درجة من درجة الجمال . وكذلك الافراد ، فمنهم المثاليون كالفلاسفة ومنهم العاديون كالعبيد . وعلى هذا بنى افلاطون نظام جمهوريته . وجاء ارسطو فلم يؤمن بتقسيم افلاطون ، وقال أن الاشياء المثالية الجديرة بالتامل والسعي للتقرب منها لا وجود لها ، وانما الاشياء الجديرة بذلك هي الماهيات . اي ان لكل كائن ماهية خاصة يشترك فيها جميع افراد ذلك النوع ، وتكون هذه الماهية دائمة الوجود لا تنقص من النوع الانساني مثلا ولو ان هذا النوع فقد عدداً من افراده . والذي اريد ان اقوله هنا ، دفعا لتطويل الكلام ، هو ان افلاطون ، ومن بعده ارسطو ، جعلوا للاشياء صورة مثالية قد يتمتع بجزء كبير منها بعض الاشياء او الاشخاص ويتمتع بجزء قليل منها غيرهم ، فيكون مقامهم في هذه الدنيا بقدر هذا التمتع . هذه الفكرة هي التي طغت على الاذهان في القرون الوسطى جميعها وصبغت بصباغها تفكير الكثيرين ، بل قد يصح أن يقال انها فكرة جارت التاريخ البشري باجمعه ، بحسب اعتبار الناس في العصور المختلفة لنوع تلك الماهية . فقد يكون معيار الاعتبار الشجاعة مثلا او العلم او الدين او المال أو غير ذلك . فكان الناس تعلو مراتبهم وتسفل بحسب ما يكون لديهم من تلك الماهية ، كثيرا كان او قليلا . وعلى اي حال فان الرجل العادي في جميع هذه المظاهر والفلسفات كان دائما في المرتبة المنحطة ، اما لانه كان ناقص العقل ، على رأيهم ، او ناقص العلم أو الدين او المال او غير ذلك . فاهتمام الفلاسفة والمفكرين به من جديد ، وخصوصا بعد النهضة في اوروبا ، دليل على ثورة ضد المبادىء القديمة. ولعل هذا الاتجاه الجديد هو الذي اوجد للرجل العادي مكانته الحاضرة ، ورفعه الى مستوى غيره ، بحيث يصح أن يقال ان العصر الحاضر هو عصر الرجل العادي .

ولنعد الان الى تكملة مقدمتنا للفلسفة الوجودية التي انحرفت عن الفلسفة المثالية بزعامة افلاطون وعن الفلسفة العقلية بزعامة الفيلسوف الالماني المشهور «هيكل» . ومع ان الفلسفة الوجودية في صميمها وليدة القرن التاسع

عشر ، غير ان لها جذورا تمتد الى أبعد العصور في القدم. ولعل القارىء الكريم يدرك من المقالات السابقة كيف انتقل الاهتمام من الكل الى الجزء وكيف ان الانسان بمفرده اصبح مركز البحث والعناية ، وان هذا الوضع لم يكن في الحقيقة على سبيل الطفرة بل تدرج في تطوره حتى وصل الى الفلسفة الوجودية . ومن اطرف ما وقعت عليه ان احد العلماء في كتاب له عن الادرية Gnosticism ربط بينها وبين الفلسفة الوجودية ، مع ان الادرية على اختلاف طوائفها ترجع الى ما قبل المسيحية ، ولو انها اشتد ساعدها في القرن الاول والقرن الثاني بعد ميلاد المسيح. وهذا هو الحال مع اساطين الوجودية مثل شلنغ وكيركيفور وهايدكر فانهم يستشهدون بسقراط ، ومن اربابها الاول في ذلك القرن شلنغ و ماركس الالمانيان وكيركيفور الدانماركي ، ثم جاء بعدهم نيتشه ودلتي وهسرل الالمانيون ، ثم هايدكر وياسبرز في المانيا ومارسل وسارتر وكامو في فرنسا . ومن هنا يتبين ان الفلسفة الوجودية وليدة التفكير الالماني في الاصل كما نعرفها الآن على الاغلب . ولعل القارىء الكريم يستغرب من ادخال ماركس في عداد الفلاسفة الوجوديين ، وخصوصا اذا تذكرنا ان الماركسية تختلف عن الوجودية بانها تهتم بالمجتمع على حساب الفرد ، في حين ان الوجودية تهتم بالفرد قبل كل شيء . ومع ان القارىء محق في هذا الاستغراب ، غير ان الوجودية مرت في عهدها المتأخر بادوار ، وكان لماركس دخل في احد هذه الادوار . فان المفكر الوجودي يعتبر ان المصلحة الشخصية هي الدافع الاول في سلوك الانسان . ومع ان هيكل يعترف بان (المصلحة) هي المحرك الاول في التطورات التاريخية ، غير انه اضاف هذه الى قوة مثالية سماها Idea تهيمن على مجرى التاريخ فقلل بذلك من اهميتها . وجاء ماركس وقال أن (المصلحة) هي التي تجمع بين افراد فريق معين ، فتدفعه الى الثورة . وهو يرى ان هذا الفريق في طور الرأسمالية هو فريق العمال . فماركس اذن من بين الاولين الذين اشاروا الى عامل (المصلحة) كما يؤمن بها الوجوديون ، ولكنه خالف هيكل ورد نظريته المثالية في التاريخ . والخلاف بين هيكل صاحب الفلسفة المثالية والفلاسفة الذين جاءوا بعده مثل كيركيفور كان من اعظم الاسباب في تنشئة الفلسفة الوجودية .

ويجدر بنا هنا ان نجمل الادوار التي مرت بها الفلسفة الوجودية في اثناء تطورها . وان نتكلم على طرف من فلسفة هيكل بقدر ما لها من التعلق بالفلسفة الوجودية ، وان نتذكر ان الوجودية في معظمها رد فعل لفلسفة هيكل، وهي فلسفة مثالية كما قلنا . ولنتكلم اولا عن (الحقيقة) عند هذا الفيلسوف ، لنعرف وجهة الخلاف بينه وبين كيركيفور . فهو يقول ان الحقيقة هي التطابق بين الشيء وبين فكرتنا عن هذا الشيء ، او التطابق بين الشيء وبين محتوى الفكر . فلو قلنا ان فلانا صديق بحق فان ما نعنيه هو ان مسلك هذا الشخص يتفق مع فكرتنا عن الصداقة . وكذلك فان الجندي الحق هو الذي يبدي صفات تتطابق مع فضائل الرجل المحارب ، اي ان سلوكه يكون موافقا لماهية الجندية . وعلى هذا فان الفرد يكون فردا حقيقيا اذا كان على وفاق مع ماهيته الفردية ، اي مع ما يجب ان يكون عليه . ومعنى هذا كله ان هيكل يفكر بوجود صفات مثالية مجردة ، كما كان يفكر افلاطون . ويقول ان كلمة (أنا) ، وان كانت تشير الى شخص بعينه ، فانها تدل على صفة عامة للانانية ، يدخل تحتها جميع من يقول (انا) وهذه الصفة فكرية مجردة ، ولذلك فان الشخصية عبارة عن فكرة محضة . وهذه العلاقة الوثيقة بين الشخص والفكرة تجعل من الاثنين شيئا واحدا ، وتجمع بين الفكر والكائن في وحدة واحدة . ورد كيركيفور على ذلك يتلخص في شيئين : وهما ان الحقيقة ليست ذهنية مجردة وانما هي بحسب الشخص ، وان الوجود يفصل بين الفكر والكائن ويجعل الكائن حرا بنفسه . فليس في هذا الوجود نماذج مثالية كالماهيات التي كان يعتقد بها ارسطو ، وليس الانسان مرغما على الانطباع بطابع هذه النماذج . فمصير الانسان وكيف يكون موكولان الى الانسان بنفسه ، والانسان بنفسه هو قبل كل شيء . ويجب علينا ان لا نفكر بالصور والنماذج المثالية التي تبعدنا عن واقع الحال ، بل يجب ان نشعر بانفسنا وبكينونة كل فرد على حدة ، وبانفصال هذه الكينونة عن غيرها . وقد نكتفي بهذا الحد عن فلسفة « هيكل » الآن ، ولعلنا نتعرض للموضوع في مناسبة اخرى .

ولكن الفلسفة الوجودية مرت في ثلاثة ادوار . وقد بدات البحث اولا في الفرق بين «الماهية» و «الوجودية» في عرف فلاسفة الاغريق وفلاسفة القرون الوسطى . واول شيء يصر عليه فلاسفة الوجودية هو ان الشيئين منفصلان لا متحدان ، وان الكينونة او الحقيقة ليست هي « الماهية » ، ولا سيما اذا كانت هذه الكينونة ليست موضع الاختبار والتحسس بها ، لان الشيء المهم في هذا العالم هو ما يختبره الانسان ويعرفه بنفسه مباشرة ، ولا شيء اقرب الى الانسان والى معرفته من وجوده هو ومن اختباراته الذاتية المباشرة . ومحصل كلام الوجوديين هو ان الاشياء يجب ان لا تعرف على الحقيقة الا من خلال الواقع الاختباري لا من خلال الماهيات التي هي عبارة عن صور مثالية كصور أفلاطون وهيكل من بعده . وكان هذا الدور الذي انصرف فيه المفكرون عن المثال الذهني المجرد الى الحقائق الواقعة المجربة مباشرة هو الدور الاول في فلسفة الوجودية ، ويشمل مدة عشر سنوات تقريبا من سنة ١٨٤٠ الى ١٨٥٠ . وفي سنة ١٨٤١ القى «شلنغ» محاضراته في برلين ، وكان بين الحضور « انكلز » صديق ماركس وكيركيفور . وفي سنة ١٨٤٣ صدر كتاب

للفيلسوف فورباخ بعنوان مبادىء فلسفة المستقبل . وفي سنة ١٨٤٤ كتب ماركس كتابه عن الاقتصاد الوطني والفلسفة . وفي السنة نفسها صدر كتاب كيركيفور بعنوان « شذرات فلسفية » ، وكتاب شوبنهور بعنوان « العالم – ارادة وفكرة » وكان له فيما بعد تأثير جسيم على الفلسفة الوجودية . وفي سنة ١٨٤٥ – ٤٦ كتب ماركس كتابه عن المثالية الالمانية وعن فورباخ ، وصدر في سنة ١٨٤٦ كتاب كيركيفور عن الفلسفة الوجودية في اوائلها .

وتلا هذا الدور دور من الفتور في تطوير الفلسفة الوجودية ، والتفت المفكرون الى المثالية الجديدة للفيلسوف « كانت » ، وعدوا ماركس وفورباخ بأنهما من دعاة المادية ، وبقي كيركيفور منسياً غير معروف ، وصرف النظر عن شلنغ وآرائه الوجودية . ولكن ظهرت مع ذلك في هذا الدور ومضات فلسفية أقرب الى الوجودية ، وعرفت هذه في العقد التاسع من القرن التاسع عشر بفلسفة الحياة . وفي هذا العقد ظهرت اهم كتب الفيلسوف « نيتشه » ، ونشر « دلتي » في سنة ١٨٨٣ كتابه في فلسفة الحياة ، وفي سنة ١٨٨٩ اصدر بيركسون الفرنسي كتابه عن الضمير ومع ان فلسفة الحياة التي أوجدها دلتي لا تطابق الفلسفة الوجودية تماما ، الا انها في كثير من اغراضها متطابقة معها .

وفي الدور الثالث امتزجت فلسفة الحياة هذه بفلسفة « هسرل » الذي حول الانتباه من الاشياء نفسها الى الفكر الشخصي الذي يتحسس بهذه الاشياء . وجرى في هذا الدور ايضا اكتشاف فلسفة كيركيفور وفلسفة ماركس الاولى . ويتميز هذا الدور بظهور هايدكر وياسبرز في المانيا وظهور الاشتراكية الدينية فيها ، وبظهور مارسل وسارتر وغيرهما في فرنسا وايطاليا واسبانيا .

ويجوز لنا ان نعتبر الفلسفة الوجودية بانها على الاغلب رد فعل معاكس لفلسفة « كانت » وفلسفة « هيكل » . فهي ترى ان قيمة المعرفة ليست بالنسبة الى الحقيقة وانما بالنسبة الى المشاعر التي تقوم في نفس الانسان ، وهذه هي التي تعطينا صورة عن حقيقة العالم ، فلا فرق اذن بين العالم الخارجي والعالم الداخلي . وهي غير ميتافيزيكية ، ولا تعترف بان الوجود والماهية شيء واحد . والمشاعر التي تقوم في نفس الانسان هي بتأثير المجموعة العصبية والغذاء والمحيط .

ولمعرفة اصول هذه الفلسفة لا بد لنا من الرجوع الى معاني (الماهية) و (الوجود) في الفلسفة القديمة . فالماهية هي التي تقرر الشيء ما هو في حقيقته ، بعكس (الوجود) الذي يقرر الشيء بحسب ما هو كائن او معروف . فالانسان مثلا شيء يتميز عن غيره بماهيته (الانسانية) ، والوردة مثلا تتميز عن غيرها بماهية (الوردية) وهكذا ، والماهية ليست كائنا بالمعنى الفلسفي ولكنها تكون في مجال القوة ، اي انها تظهر الى حيز الفعل عن طريق الوجود ، وبذلك تجعل للشيء نوعيته الخاصة . فالماهية لها قابلية الوجود ، وهي في حيز القوة لانها حقيقة غير تامة ولا توجد بذات حدتها . ولكنها تبقى محافظة على قوتها في كل وقت ولو انها تمثلت في الوجود . فنقول مثلا ان ابريق الماء يحتفظ بقوته على استيعاب الماء ولو انه مملوء بالماء في الوقت الحاضر . ومعنى ذلك ايضاً ان الماهية لا تختفي بمجرد ظهورها الى عالم الوجود ، وتحتفظ بحقيقتها الخاصة بها المتميزة عن حقيقة الوجود . ولذلك فان الماهية شيء من الاشياء ، وكائن من نوع ما . ولكنها لما لم يكن لها وجود خاص بها ، فانها كائن غير تام . ولا تستطيع الماهية ولا الوجود ان يكون احدهما منفصلا عن الآخر ، ولا يتم الواحد منهما الا بالآخر . وكلاهما كائن غير تام ، والماهية تشترك مع الوجود بقدر قوتها ، والوجود يشترك مع الماهية بقدر تنوع هذه الماهية . والمهم في الامر ان نلاحظ هنا ان طبيعة الشيء او ماهيته وحدها لا تؤلف حقيقة ذلك الشيء .

لندن — حسن الكرمي

على العهد

أتيه بدنيا صباها الوديع
ومن عذب احلامها أرشف
واصدح في اغنياتي العذاب
ليهتف في الحب من يهتف
واشدو بشعري شدو الطيور
فيهتز قد لها أهيف
وابعث الحاني المرهفات
على نغم ساحر تعزف
واطلق للقبلات العنان
فيترفها خدك المترف

حبيت الحياء وسحر الجمال
فاضحى هواك بنا يعصف
ويوحي باطيافه الحائمات
ويترع قلبي بما يرهف
دلالك والبسمات الحسان
هموم المعنى لها تكشف
النساك يا منهل الظامئين
وانت بما – يدعى – أعرف
فديتك يا سلوة المستهام
سابقى على العهد لا أخلف

بغداد — حسين الصدر



ضجر

**

غمر الليل بالكآبة ليل ... مدلهم يجيش بالانواء
فاستتر الفضاء اذ نشر الليل ... جناحا في شملة سوداء
واستطابت حلو المنام عيون ... أجهدتها بهارج الاضواء
النفوس الظمئى يهدهدها الشوق ... فتغفو على نشيد الرجاء
والفؤاد الجريح يطعمه الوجد ... بوعد من كاذب الاهواء
نام من في الوجود غير كئيب ... يتلظى من وحشة وعناء
ليت شعري من ذا اثار شبا الوجد ... بصدر الحسناء عند المساء
درجت والظلام منعقد الذيل ... بذعر كالحية الرقطاء
واستترت ببرقع من ظلام ... حين راحت عن اعين الرقباء

سئمت وحشة السماء فولت ... بجفاء وجهها الى الدأماء
علها تستبين في البحر امرا ... كتمته جوانب الجوزاء
فاذا بالنداء يخنقه الموج ... ويخفي المحيط كل نداء
وتضيع الامال في لجج الماء ... وتطوى الاخبار طي الخفاء
كم حزين اتى الشواطىء يستجلي ... ببشر غوامض الاشياء
يسأل البحر عن حبيب تناءى ... مستعيدا ايام عهد اللقاء
وينادي العباب هل من رجاء ... في لقاء الحبيب بعد التنائي
اي شيء سوى التبرم يتلى ... في زفير المحيط من انباء
ينفث البحر نفثة الالم المر ... كمضنى يجود بالحوباء
ثائر صاخب يزمجر هدارا ... ويرغي من قسوة وجفاء
تتهاوى امواجه حين يهوى ... كخيول في حومة الهيجاء
ولصوت الرياح انة شكوى ... من حزين في فحمة الظلماء

ضاق صدر الحسناء ذرعا فراحت ... تترامى شطر الحمى من عياء
شفها ان يضيع في صخب الموج ... لفاها وينطوي كالهباء

دمشق

عدنان مردم بك

مأساة البطل في القصة القصيرة اللبنانية

بقلم نعيم حسن اليافي

***

ان الذي يتتبع بالدراسة معظم الاعمال التي اصدرها الجيل الرائد والجيل المكون للقصة القصيرة اللبنانية تلفته ظاهرة تكاد تشترك فيها جميع شخصيات هذه القصص . وهي انها تنتهي – غالبا – بالموت او بشكل من أشكال المأساة .

ولم توجد هذه الظاهرة – في رأينا – اعتباطا بغير دلالة ، فهي ترتبط الى حد بعيد – عند الفحص – بالموقف العام للكاتب نحو الحياة ، وبوجهة نظره التي تفشى (خلفية) القصة ، وبكلمة اخرى ان الموت ليس افتعالا في تصوير الشخصيات يؤكد فيه الكاتب تعاستها ، ويعذرها في آثامها ، ويثير في القارىء عاطفة الشفقة عليها كما هو الحال عند الرومانسيين ، انه هنا تحكمه (وجهة نظر) معينة اجتماعية وفنية معا ، تصدر عن شعور واحد ، وروح واحدة ، وتجمعها (رؤية) واحدة يقدمها الكاتب الى القارىء ، وتبرز في الانطباع الاخير للقصة . وكأنه يقول له : هذه انا وهذه هي الحياة .

وسنتخير لدراسة هذه الظاهرة اعمال ثلاثة كتاب من الجيلين على السواء نعتقد انهم أبرز من كتب القصة القصيرة اللبنانية واعطاها قيمها ، ووهبها وجهها المشرق ، وهم : ميخائيل نعيمة ، وتوفيق يوسف عواد ، وسعيد تقي الدين .

ينبثق موقف ميخائيل نعيمة في مجموعتيه القصصيتين خاصة « اكابر » و « ابو بطة » من تقسيمه الانسان الى (مجموع) والى (فرد) ، الاول منهما كم مبهم مهمل حائر صابر متألم ، ونعيمة لا يؤمن بهذا (المجموع) ، والثاني منهما هو الفرد الواحد المتميز التواق الى التغلب ، وهو يؤمن به اشد الايمان ، ويقابل في قصصه بين الاثنين ، ويضع الثاني في مواجهة الاول او في مواجهة الآثار الشريرة التي تركها في نفسه ، أي انه يضعه في موقف الصراع معه او مع آثاره . وينتهي من هذا الصراع في بعض شخصياته بالهروب ، بشتى اشكال الهروب ، ولكنه غالبا ما يودي بها الى المصير البائس الحزين الى الانتحار ، وبكلمة ادق الى الموت ، (انظر في هذه النهايات قصصه : العاقر وشورتي في المجموعة الاولى ، وستوت ، كسار الحصى ، على الله ، صادق ، ذنب الحمار ، او ليست بأم ، عصفور وانسان ، هدية ، ابو بطة ، المسيو الفونس ، دجاجة ام يعقوب ، اليوبيل الالماسي ، شهيدة الشهد ، هدية الحيزبون ، وغيرها في المجموعتين الثانية والثالثة) .

والكاتب يرى في ذلك ان المجتمع البشري بقيمه المختلفة القومية الوطنية والدينية ، وبعاداته وتقاليده، ينز بالصديد والحقد والبغضاء ، وما اوثانه الا أشراك يحسبها الانسان حبال الخلاص واطواق النجاة والامان ، حتى اذا ما اسلم زمام امره ، واحاط بها عنقه ، وتعبدها ، اخذت بيده الى الهاوية الراعبة الى الموت ... فالمال في (هدية الحيزبون) يدفع الانسان ليضحي في سبيله باعز ما يملك – ولده – فاذا المال في النهاية سراب ، واذا الذي ضحى يلحق بضحيته ... والدولة ، وما الدولة ؟ هذا الوثن الثاني ، بكل ما تحمل من دلالة وطنية او قومية ، اليست هي انت ... انا ... وغيرنا ... ولولاي ولولاك ولولا غيرنا لما كانت ، فهل من حقها اذا حمت حياتنا وبيوتنا وحرياتنا ، ان تسلبنا حياتنا وبيوتنا وحرياتنا ساعة تشاء ؟ الغدر الحارس الذي يقضي على محروسه ! اما كان خيرا للحمل لو لم يحرسه الذئب ؟!.

لا تنقذ (الفرد) او الانسان اوثان الاول (المجموع) او (المجتمع) لانها اوثان باطلة ، لا تنقذه سوى العودة الى نفسه ، يقلم اظافرها ، اظافر الشراسة والشراهة وحب الفتك ، وما يرافقها من بغض وجشع وغضب وانتقام وسواها ، فهذه كلها اظافر تليق بالوحش ولا تليق بالانسان، فلا بد من تقليمها لمن شاء ان يكون انسانا وان يعيش مع الناس في سلام ، وفي الوقت الذي تتقلم فيه الاظافر ، ويصفي الانسان نفسه من ادران المادية ويعدها لتقبل (الاشراق) ، تصبح الانسانية شركة بين الناس جميعا فيدفأ قلب الله « ويذوب الجليد » ، اما ما دام في الوقت الراهن يحجب هذا الاشراق عن نفسه ، ولا يعدها الا لتقبل قيم المجتمع ومبادئه ويستسلم ذليلا طائعا لاصنامه وشهواته فانه سيظل ينحدر وينحدر من سيء الى اسوأ وسينتهي ولا شك الى النهاية البشعة القاتمة الى الموت.

وعندما ننتقل الى توفيق يوسف عواد والى مجموعاته الثلاث «الصبي الاعرج» و «قميص الصوف» و «العذارى» فانا نرى ان الحياة ذاتها تشكل عنده في جميع فصولها مأساة الانسان الكبرى لانها تنتهي بالموت ، وما دامت تنتهي بذلك فان (قيمها) تتساوى ، فالترهب والزواج والموت هي في الشكل الاخير معطيات واحدة «.. سامضي قبل ان يأتي صاحبي الذي كتبه لي القدر في لوحة لاقول له « السر » ، أما انتما فطوبى لكما لانكما ستقولانه بكلمتين اثنتين ، مختلفتين في المظهر ، متحدتين في الجوهر ،طوبى لكما مرة اخرى ووداعا !

وشهقت شهقة ، فصرخت الوسطى : – اختاه .

وهتفت الصغرى : – افديك بروحي !

ولكنها كانت قد هوت الى الارض ، فانحنتا عليها تولولان:

– هي العاصفة التي هبت في الليل قد قصمت ظهرها.

– لو عاشت الى ان يأتي الصبيان والصبايا .

– ... الى ان تبوح بسرها .

ـ ماتت ولم تعرف الالم .
ـ استراحـت .
ـ ... قبل ان تعرف ما هو التعب .
ـ هنيئـا لهـا !.
ـ رحمهـا اللـه !.

وبعد فترة صمت ثقيل مـدت الصغرى باذنها للهـواء وهتفـت :

ـ اتسمعـين ؟!
ـ مـاذا ؟
ـ لقـد جاؤوا ! »

فالموت هو قمة مأساة الحياة ، به يفسر عواد ـ كثيرا ـ حركة الحياة وعناصرها الفعالة ، ويتكشف هذا خاصة في قصته « ميثاق الموت » التي دارت حول عنصر الوهم او الايحاء الذاتي يذكرنا ـ غالبا ـ بعنصر النبوءة في المسرح الاغريقي القديم ، ففرانسوا البطل الشجاع الذي خـاض غمار الحرب الاولى واصطلى بنارها كان يؤكد بينه وبـين نفسه ولكل اصدقائه انه سيموت ، وتنبأ بذلك حين راهن بالعثور على حقيبته وسط آلاف الحقائب ولكن معـارك الميدان لم تلب نداء احساسه الغامض بل على العكس فان الحرب وضعت اوزارها ، وظلل السلام اطراف المعمورة ، ونقل فرانسوا مع من نقل في سيارة عائدا الى بيته ، وفي الطريق ما تزال الفكرة تلح عليه ، تراود ذهنه وترقص امام عينيــه :

ـ هذا هو ، هذا هو .
ـ مـاذا ؟
ـ البيت ! البيت ! بيتنا !.. اسرع ايها السائق اسرع ! هاي ! هاي ، اتريد ان تقلب بنا السيارة (والتفت الـى برزانة متابعا) الموت ايضا موجود تحت دواليب السيارة ، أليس كذلك ؟

واخيرا تصدق النبوءة ويتحقق الوهم « .. فلما وصلنا امام البيت رفع كفه ليدقه ، ولكن يده وقفت في الفضاء فجأة ، فسألته ما به ، فادار وجهه الي ببطء عظيم كأنـه صخر يتحلحل ، وانفتحت عيناه في عيني ، جامدتـين هائلتين ، فاردت ان احول عيني عن تينك العينين فلـم استطع وانتظرت ان يحولهما هو عني فلم يفعل ، فحاولت ان اقول له شيئاً فلم تطعني شفتاي ، فجعل قلبي يخفق واحسست بمثل الاختناق في حلقي ، فعزمت ان ارفع يدي الى كفه الباقية ازاء الباب ، فالتصقت بثيابي ، ومرت دقيقة طويلة ، طويلة كأنها دهر ، وعيناه في عيني براقتين كالزجاج على شمس الهجيرة حتى سمعت صرير الباب تفتحه يد من الداخل ، فارتعدت ، ورفت عيناي ، وانحلت عقدة لساني وهممت بان ...

فاذا بفرانسوا يقع على عتبة بيته جثة هامدة !

وهذا كله معنى ما نقوله من ان الموت هو العنصر الذي يستغرق مواقف عواد في تفسيره لحقيقة الحياة ولحقيقة الوجود .

اما قصص سعيد تقي الدين في مجموعاته « الثلـج الاسود » و « موجة نار » و « غابة الكافور » و « ربيـع الخريف » فانها تعطينا نفس النهاية : الموت او المأساة ولكن في (طعم) آخر ، فالكاتب يعتقد بان المال قنينة ديناميت اذا اشتبكت عليها اصابع المرء فيجب ان يرمي بها الى اقصى ما يقدر مخافة ان تنفجر بين يديه ، ان الاماني ـ في رايه ـ تفسد عندما تتحقق ، واللذة لا تكون الا في العذاب والنصب واللهاث . هذه وجهة نظره ، وقد جاءت شخصياته تحمل او تطبق (وجهة النظر) هذه ، فهي في حياتها تتعب في جمع المال وقد تحتال وتعيش على الحلال وعلى الحرام ، وتتاجر بالقيم في سبيل المادة ، حتى اذا ما بلغت ـ الواحة ـ وتجمعت بين يديها خيرات الدنيا وتفجرت في جيوبها كنوز المال حلت الكارثة ، وجاء غضب « تقي الدين » ، موتا او شللا او مرضا او تعويقا باية صورة من الصور ، ليكون كل ذلك جزاءا عادلا من جنس العمل يذكر الشخصية بشهوتها وجشعها ويحملها في نفس الوقت مسئولية تمريغ مثاليتها بالطين .

هكذا يموت « فهد السرحان » في « حلم البولفار » مع من مات في هزة ارضية حلم بها لغيره فقضى بمثلها ، و « جمال السفبيني » في « موجة نار » ووهبة فـي « افاقة » تشل يداهما ، الاول لاحجامه عن توقيع الشيك والثاني لانه ذبح « سعيد الحوراني» من الوريد الى الوريد ، و « جيمس الكبير » في « الطابة الخضراء » الذي كـان يحتكر الملاح ويجمع الملايين من اجل ابنه يموت هذا الابن بالسل جزاء ما فعل ابوه ، و « ريموندو » الصحفي الذي باع ضميره للشيطان رسمت « غابة الكافور » ـ التـي نالها ـ باشجارها على وجهه فحكم عليه بالعزلة والابتعاد عن الناس ، وحمدان المرابي في « ظل الموت » لم تنفعـه توبته فكانت نهايته السجن . (وانظر كذلك في نهايـات المأساة هذه قصصه) « الكتاب العظيم » «الملك فرننَدس» «الصورتان» «القدم الناطقة» «ضيعة الكلاب» «المرحوم» «قصة غير عادية» «المرساة» وغيرها) .

ولئن استطعنا في حالة نعيمـة وعواد ان نربـط بين (موقف) الكاتبين و (مأساة) الانسان كما تبدو في قصصهما فان هذه العلاقة في اعمال تقي الدين تتعدى حدود (الموقف) لترتبط ـ فيما ارى ـ بدوافع سيكولوجية ترسبت في اعماقه نتيجة حياته الانفعالية المضطربة التي عاشها فـي الفلبين اعواما طويلة ، وبكلمة اخرى اقول ان النهايات الحزينة التي صارت اليها شخصياته ليست مجرد نتائج حتمية لاعمالها الشريرة فحسب ولم تصدر عن (رؤاه) الفكرية فقط وانما هي قبل ذلك مرارة عميقة ضجت في اغوار نفسه فاظهرها حين لم يقو على اخفائها ، واذا رجعنا الى نفس الفترة التي عاشها في « الفلبين » مهاجرا يسعى

مبتسمة

●

تبتسم .. تبتسم بها الصفاء يحلم
كأنها عنقود ضو ء للصباح ملهم
او انها همسة حب ـ لم يهدهدها فم
او انها رف الندى يرشف منه البرعم
ففي التفاتها منى وفي خطاها نغم
تشرق عيناها وفيـ ـها للفؤاد بلسم
فتضحك الروح لها ويجمل التكتم !

زنبقة الصباح جل ـ المبدع المعظم
تحكمي فأنت من يظلم حين يحكم
ونحن للظلم أسا رى يستبينا الالم
فناره برد عليـ ـنا وجواه مغنم

تبتسم .. تبتسم فللدرارى موسم
وللصبا تألق وللربيع مقدم
ابصرتها في الليل تز هو والنجوم حوم
ووجهها البدر وهل بدر سواه يبسم ؟
منطقها يعذب وال حديث سحر مبهم
والشوق في البعد لها والقرب عات مضرم

عاشت كما تبغي وعا ش العطر والترنم !

الرياض — حسن عبد الله القرشي

وراء المادة وما سبقها من ظروف نشأته وهجرته واسبابها على السواء فاننا نجد ان الالم كان عنصرا من عناصر هذه النشأة القاسية ، ثم كان التوتر النفسي الشديد عنصرا آخر ، وكان بعد هذا وذاك الارتباك والاستهتار والعزم على الانتحار وسائله المفضلة الى تجسيم المه القديم واظهار توتره النفسي الآتي فلماذا لا يكون العذاب الذي يجعل شخصياته تعيش فيه ويذيقها صنوفه من جهة ، والنهايات المفجعة غير الباكية من جهة ثانية هما معا وسيلتاه الوحيدتان الى الانتقام من الناس ؟ ان الهرة تلاعب الفأرة قبل الفتك بها ، وان القاتل يقف عند جثة القتيل صائحا : قتلته لاني احبه ، وقد يكون ذلك دفاعا من الكاتب عن (المثال) الذي مرغه هو ومرغته بالوحل معظم شخصياته ولكن ليس من شك في ان الدوافع البعيدة للنهايات الحزينة التي انتهت اليها شخصياته وما رافقها من التوتر والعذاب ومن الموت ايضا كان يتربص بها الدوائر ويكاد يذيلها من الوجود قبل ان تحمل من الوجود .. وارتعاش النفوس ، واضطراب الاجسام .. وفرق الارواح .. كل ذلك يرجع في النهاية الى (سادية) المؤلف نفسه .

ومهما يكن من امر هذه السادية عند الكاتب فانها قد انتهت بشخصياته الى نفس النهاية البائسة التي انتهت اليها شخصيات زميليه السابقين ، الى قمة المأساة ، الى الموت ، وهي ظاهرة تلفت النظر في القصة اللبنانية القصيرة وقد تتعدى ـ في تعليلها وبيان اسبابها ـ حدود وجهات نظرهم ، ولا تقف عند رؤاهم ولكني لا استطيع ان ابت في ذلك بصورة قاطعة لان الدلائل التي بين يدي لا تزال غير كافية .

القاهرة — نعيم حسن اليافي

متعب

قصة

بقلم جاسم الجوي

كان يعوم في سحابة حزن رمادية . تضغط على روحه . وبانت له الجدران ، والناس ، والمخازن بحر حزن غامق ، راكد ، تتأسن فيه الكلمات ، الصدى ، النظرات الباهتة الصدئة .. واحس باختناق ، دوار . كأنه يسقط في اعماق دوامة هائلة . كحجر قذف في بئر دامس يملاه فراغ ، كثيف ، صامت .. همدت مشاعره .. طنين خافت في اذنه .. احاسيسه تتكثف تتجمع في نقطة ، بؤرة متوترة .. تناهت اليه هلاهل حزينة تتدفق من صوت فيروز .. صار حزنه اخضر .. اثمله .. بهجة تنبع من الحزن .. تغمره .. حدائق احلامه تلوح له .. عيونه نحلة بين ازاهيرها .. وهتف فرحه ، ساحيا، واكتب ، واعشق .. انا احبها .. ضحكاتها الصغيرة طير يحملني الى عالم غامض بكر ، ان لها وجها حقيقيا لا طلاء فيه ، كعينيها ، كضحكاتها .. اذهب اليها ، واخبرها اني احبها .. لا اشك فيها .. لا .. لا اقول لها احببتك .. اننا مشدودان ، ولا مهرب لنا .. لا مهرب .. اضحكي لي . اضحكي .. واغرق في ليل عينيها .. وأد الصمت الاغنية .. هرب حزنه .. احترقت حدائق احلامه .. تساقط خواء في اعماقه .. هوة تفتح شدقيها في داخله .. نظراته تتساقط في ركام الفراغ .. استحوذ عليه هدوء .. شعر بتعب كأنه كان يصارع اعصارا .. خشي ان يسقط مرة اخرى في غيهب .. يهوي من حالق .. احاسيسه تلهث .. الظلال حيوان اميبي ضخم يتحرك باتجاهه .. الشارع ينضح ناسا .. يقتربون من مكتبته .. لا يعبأ بهم .. يقفون برهة .. يواصلون سيرهم .. تلج عيونهم حانة سويس بوفيه ، ومقهى البرازيلية .. يمضغون ملامح الجالسين .. يتبادلون نظرات جوفاء كسلى .. يجترون كلماتهم اليومية .. تقترب دفقة اخرى من كتبه .. تقالب عناوينها .. صورها .. وتعيدها .. اقتربت امرأة . تضوع عبير انوثتها ، التصقت عيناه الشبقتان بوجهها . لثمت عينيها . اختطفها خياله .. نأى بها عن الناس .. الجدران .. طوقته بذراعيها .. قرا لها مقاطع من قصيدة عيون الزا .. شعر الزا .. امتص شفتيها .. انتزعت نفسها من خياله . ابتاعت قصة حب سخيفة ، وانصرفت . تألم لانه قرأ مقطعا من عيون الزا .. ازدحمت في اذنيه اصوات متناخرة .. الكلمات اليومية ..

اشتريت حذاء ..

اي لون ..؟

اسود ..

بعد ثلاث سنوات استحق التقاعد ..

معدتي تؤلمني افرطت في الغداء..

جاءني طفل جديد .. صاروا ستة ..

انظر . انظر كم جميلة ..

نمت اليوم اربع ساعات في الظهر. شعر انهم ضده . كلماتهم اسواط تلهب مشاعره .. نسيج عنكبوت يحاصره . يلتف حول عنقه .. وسقط في صحارى موحشة .. الغربة تعذبه . بركة نار تحرق اهابه .. وتستبد له لتحرقه .. ارتعش جسمه .. الجدار . الشوارع . السيارات الكلمات صار لونها رماديا .. رعب يهاجمه ابصر امامه راس بائع الصحف الصغير يهوم من النعاس .. شعر باضطراب .. كان يفزعه نوم الظهيرة . يحس عندما ينهض من النوم كأنه نام مئة عام في كهف عصر آخر .. حاول ان يفكر بشيء آخر يذود عنه النعاس .. فتهافتت عليه كلمات امه الضارعة تغريه بتناول الدواء وينام .. كان يحبها ، هي الشاهد الوحيد على العذاب .. واستجاب لها مرة ، ونام ، فجثمت على صدره الف سنة .. ولم يكررها .. كان يحاول اقناعها بعدم جدوى الدواء ..

لا فائدة منه .. لن ينفعني دواء.. السل احس دبيبه في رئتي ..

وفكر ليتني استطيع ان اخبرها . اجد مبررا آخر اقوى .. مبررا منطقيا .. منطقيا .. سترتعب لو قلت لها لا ارغب في الحياة .. لا ارغب. وتفكر امه . عنيد منذ طفولته .. كان يومها صبيا .. يذهب الى المدرسة يجمد البرد القارس دماءه. فسأله المعلم بعطف ..

خضير اليست لديك سترة ..

فانتفض احس بعيون الطلاب انشبت نظراتها في كبريائه ..

وقال لابيه لا احتمل هذا البيت لننتقل الى آخر .. مللت هذا الشارع . الجدار الاصفر الطويل ، يمتص دمائي ، سور يسد المنافذ.. لقد امتلأ الطريق بخطاي .. ام محمود التي لا تفارق باب دارها تفحصني بعينيها . تنفذ نظراتها الى عظامي .. لا احتمل هذا البيت .. تسألني دائما عن صحتي واقف لاجيب ... واجيبها .. كانت امه تتوقع انه سيكبر ، يتوظف ، ينشيء اسرة تحمل طفله .. ولكنه .. لو يشرب الدواء .. سيموت .. ويؤلمها اصراره ، فتنكفيء باكية .. ويتألم.. فيذهب اليها، يداعبها ينتزع ابتسامة منها ، ابتسامة تتوهج بين دموعها..

تبتل

لا شيء غير صداقة الشعر   وتبتلي لحبيبة العمر
وغيوم عينيها ... ولهفتها   لفراق ارض النور والعطر
وتلهب الحرف الذي لهثت   انفاسه بعروقي الحمر
ورؤى افاعي اللحن يرقصها   الحاوي الاصم... ومارد العصر
متشنج الكفين في نزق   متمردا ... متطاير الشعر
او ناعما تسري عرائسه   مجلوة في عالم سحري
سكرى ... كرقرقة الشراع على   نهر يفضضه سنا البدر

* * *

الشاعر المراح مكتئب   بعد النعيم مشتت الفكر
لا شيء غير وجيب خافقه   متفجع النبضات في الصدر
وحبيبة ترنو مسائلة   عن سهده... وتحارف في الامر
ما باله في لحظه قلق   متململ ... وغمامة تسري
يا ليل هل تشجيه امته   ام عصره المملوء بالشر
وضياع مطلعة المسيح على   ايد تبيع المهد بالتبر
ام هجره للريف المه   ونزوحه عن موطن الزهر
جلساته في ظل قنطرة   بيضاء مشرفة على البحر
ووميض قرميد تقلله   شمس الضحى بخيوطها الشقر

* * *

أضياع هذا الخلد يحزنه   ويميت بسمته على الثغر
أيبوح للعين التي سألت   لا ... لن يفتق برعم السر
لتظل من يهوى منعمة   بمدينة العتمات والخمر
ويظل لليل الذي تعبت   اضلاعه للصمت .. والصبر

فؤاد الخشن

ويفكر بالدواء .. ثم يعدل .. وهو يرى ابتسامتها .. سقط راس الصغير النائم في الهواء .. فاعتدل ، واسند راسه ثانية الى الجدار ..

كان الناس يهربون من الشمس يلوذون بالظلال ، وفي السماء خليج ازرق تطفو على سطحه غيمة بيضاء، مضيئة ، .. ازداد الالم في صدره .. الحمى تشتعل في عروقه .. رأى وجهه على زجاج سيارة وقفت امامه اخافته ملامحه . تجاعيد وجهه الزرقاء .. عمري ثلاثون سنة ... مسيرة تعسة .. متعب .. متعب ..

ان عمري الف سنة .. الف .. تثاءب . احس انه فأر في فم قط يركض به .. ويثب . النعاس يداهمه . يربض امامه . يحدق في عينيه .. وتتخدر .. وهن يسري في جسمه .. الجدران .. الشوارع .. الشمس تنام بائع الصحف نائم .. اغمض عينيه . تحرك رأسه .. اصابه ذعر .. دعك عينيه .. سدد نظراته الى معرض الاحذية الذي يواجهه . كان صاحب المعرض يتحدث ايضا .. وحنق عليه .. لم يره لحظة صامتا .. ذهب يوما اليهم ليعرف حديثهم

وجدهم يستعيدون احاديث قديمة ، يصغون اليها بشغف ، واذا استنفدوا احاديثهم ليتحركون كأنهم اضاعوا شيئا . فيغفون وينقرون الارض باقدامهم ..

احس انه على حافة بئر . لا يستطيع ان يتماسك الارض تنهار تحت قدميه .. يسقط بسرعة من قمة شاهقة الى اعماق سحيقة .. صمت كثيف .. سمع ضحكات .. ضحكاتها الصغيرة تحمله كحلم ...

بغداد   **جاسم الجوي**



محمد رجب البيومي

رثاء المدن بين الاندلس والمشارقة

بقلم محمد رجب البيومي

***

حين كتب تاريخ الادب العربي في اوائل هذا القرن على نهج الاستشراق ، اضطر رجاله الى الالمام باحكام عامة حالفها الصواب في اكثرها ، وبقي بعضها مجالا للبحث والدراسة، وكان نصيب الادب الاندلسي من هذه الاحكام الصائبة موفورا بلا شك ، ولكن اضطرار باحثيه الى اثبات فروق كثيرة بينه وبين الادب العربي بعامة أوقعهم في بعض الخطأ الظاهر كقولهم ان رثاء المدن فن اندلسي اوحت به مآسي الحوادث هناك ، وقد رسخ هذا القول رسوخا مكينا حتى وجدنا اطروحة جامعية حديثة تتحدث عن نكبة فلسطين وما قيل فيها من الشعر ، فترجع بالاثر الى اشعار النكبة في الاندلس ! وهو غلو في الاستنتاج لا نرى داعيا الى التمسك به ، وحتى رأينا نفرا من اعلام الكتاب كاستاذنا احمد امين يعلن خلو الادب المشرقي من مراثي المدن ويعلل بما يعن له ، ونحن نعرض رأي هؤلاء ممثلا في قول صاحب ظهر الاسلام ج ٣ ص ٢٨٧ .

«لقد رأينا مدنا في الشرق تتساقط تساقط اوراق الشجر تستوجب الرثاء والبكاء كما سقطت بغداد في ايدي التتار، وازالوا كل ما فيها من مظاهر المدنية والحضارة ، وفعل التتار بها ما لا يقل عما فعله الاسبانيون في الاندلس ، وغزا هولاكو وتيمورلنك ونحوهما بلاد الشام ، واسقطوها بلدا بلدا ، فما رأينا عاطفة قوية ، ولا رثاء صارخا ، ولا ادبا رقيقا ، ولا تاريخا مسجلا !! كالذي رأيناه في الاندلس فان قلنا ان هذه الناحية في التاريخ الاندلسي اقوى واشد لم نبعد عن الصواب » .

وعبارة استاذنا الكبير رحمه الله على شيء من التناقض اولا واخيرا ، اذ ان قوله فان قلنا ان هذه الناحية في التاريخ الاندلسي اقوى وأشد لم نبعد عن الصواب قد يبدو متعارضا مع قوله فما رأينا رثاء صارخا ولا ادبا رقيقا ولا تاريخا مسجلا !! لان القول الاخير يعترف بوجود هذا اللون على نحو اقل من لون الاندلس والقول الاول يكاد يحكم بعدمه !! مع ان المتصفح لكتب الادب والتاريخ يرى رثاء المدن ذائعا في كل محنة تجد ، ولم يتعرض أمثال الطبري وابن الاثير والمسعودي لمحنة ما الا رووا عنها في كتب التاريخ ، فضلا عن كتب الادب الخالص ، نماذج رائعة فيها الرثاء الصارخ والادب الرقيق ، والتاريخ المسجل كما كان يريد استاذنا الدكتور أحمد امين وسبيلنا الآن ان نفصح عن ذلك موجزين !

لم يكن للشاعر الجاهلي قبل الاسلام مدن يبكي عليها ، فهو ينتقل في الصحراء الواسعة من مكان الى مكان طلبا للمرعى وسعيا وراء العيش ، واذا الم ببعض مدن المناذرة بالحيرة والغساسنة بالشام فهو الملم المسافر المتكسب الذي لا يشغله ما يراه في الحضر عما خلف في البادية من نوق وخيام واصحاب ، وشعراء الحضر في الاقليمين مناذرة وغساسنة لم يجدوا من الحوادث الهائلة ما يدعوهم الى رثاء المدن اذ ظلت سليمة آهلة تحظى بسيطرة الملك وابهة السلطان ولكن شعراء البادية في تنقلهم المتتابع بالصحراء، كانوا يألفون مرابعهم ، ويبكون على فراقها اذا اضطرهم السير الى انتجاع موضع عشيب ، والشاعر الذي يبكي الربع الدارس والطلل الماحل ، ماذا كان ينتظر منه لو عاش في مدينة آهلة ثم نكبت في كارثة فادحة ! لا بد انه كان يرسل المعلقات الرنانة في توضيح عاطفته النائمة وشجنه المتاع ! على ان ما لدينا من ادب الاطلال في الجاهلية وصدر الاسلام ادب عاطفي صادق اللهجة ، صريح الدلالة على هيام العربي بارضه وتعشقه الصحراء وحنينه الى منازل احبابه ! وما شوه هذا الادب الجميل الا تكلفه الزائف عند شعراء بني العباس ممن اغرموا بمحاكاة اسلافهم لا عن حنين للربع او هيام بالطلل بل كي ينهجوا المنهج الجاهلي في القصيد ، وزاد ما قاله هؤلاء المحدثون عن حده حتى استثقل ومج ، وعادت كراهيته عفوا الى ذلك الادب الاصيل مما قيل في الجاهلية وصدر الاسلام عند بعض المتسرعين، اما الذين يعرفون منازع الشعر ويقيمون احكامهم على اصالة العاطفة وصدق الاحساس فيضعون ادب الاطلال في عصورها الاولى موضعه الاثير ، ويرون فيما قاله امرؤ القيس بدارة جلجل وزهير بدمنه أم أوفى وعنترة بدار عبلة في الجواء ادبا حي العاطفة صادق التعبير ، واذا جمعت الاطلال بعضها الى بعض فهي مدينة زائلة بكاها الشاعر الجاهلي فصدق البكاء !؟

وقد تطور ادب الاطلال فيما بعد الى ادب الآثار ، فأصبح الشعراء يجدون في قصور التاريخ واواوينه واهرامه ومسلاته منادح واسعة للقول ، وان كان الشاعر في وصف الآثار واستجلاء عظمتها الغابرة يتحدث عن عاطفة عامة مشتركة يجد صداها لدى كل مواطن مثله ، اما شاعر الاطلال فيصدر عن عاطفة ذاتية ينفرد بها في الاعم والاغلب، واذا شاركه فيها انسان آخر فان الشاعر لا يكترث به بل كل همه آن يفرج عن صدره هما يرين عليه بما ينظم من ابيات ولحيوية هذا الادب وصدقه اصبح ذا متعة وانس لقارئه المتذوق ، وان لم يكن من ساكني البادية وعاشقي الاطلال والربوع !

* * *

كانت بغداد اول مدينة تعرضت للتدمير والحريق في صدر الدولة العباسية حين استعر الخلاف بين المأمون والامين وهجمت الخراسانية بمجانيقها ورماحها وخيولها ، واشتطت اشتطاطا ظالما في نسف بغداد وترويعها ، وقد زاد الطين بلة ان اهتبل الفرصة فريق من الاوشاب والرعاع فتسوروا القصور والمتاجر واقتحموا الدور ، ونهبوا الاموال وهتكوا الاعراض ! وكانت محنة مروعة لم يكن احد ليتصورها في عهد بني العباس ، وهم الذين قد جعلوا بغداد حاضرة العالم باسره وعاصمة الاسلام في اقاصي اقطاره وكانت منذ سنوات قليلة تنعم بابهة الرشيد وعظمته، ويعد القاصون أرحلهم لينعموا بمشاهدتها وقد قطعوا الشهور ذوات العدد ضربا في الطريق وتجوالا في الانحاء مستسهلين الصعاب ، ليتحقق حلمهم البعيد برؤية بغداد، فلما حلت النكبة الفادحة وقف الشعراء الرسميون من مادحي الخلفاء والوزراء ينظرون على من تدور الدائرة ليشمتوا به ثم ليتجهوا الى غريمه الظافر يهنئونه بالنصر ، ويختلقون له روائع البطولة والنجدة وبعد النظر ،ويجعلونه معجزة الانقاذ ، ومؤئل الرجاء ، ولكن شاعرا خاملا بذكره ، نابها بجودته ، لم يكن يؤثر الرؤساء بامداحه بل كان يجعل شعره مسلاة نفسه ، ومنتفس شجونه قد هاله ان تصبح بغداد العظيمة موضع الحسرة والفجيعة وتعاظمه ان يجد السفلة من الاوشاب يراسون المظاهرات لاقتحام الدور واغتصاب الاموال ، وسلب العفاف ، فارسل زفراته الحارة كاوية لاهبة في قصيدة مؤثرة باكية تجاوزت المائة من الابيات ، هذه القصيدة الرائعة لم تحفل بها كتب الادب ، فتشيد باتجاهها الواقعي ، وتعبيرها المؤسي ، واتساع منافذ الشعور وابعاد الخيال ومطارح التصوير لدى قائلها، وهو بعد لا يشعرك انه ناظم يتعمد الوصف ويحفل بالجزالة ويمهد لضروب الاستعارة والتشبيه ، ولكنك تقف منه امام نهر مطرد المسير دافق التيار ، وحسبه ان ينقل عن نفسه ما يجيش بها من هدير ! هذا الشاعر الذي حفظ كتاب الطبري وحده قصيدته هو أبو يعقوب اسحق الخزيمي الذي لا تكاد تروي كتب الادب شيئا عن تاريخه وشعره وانما هي سطور متفرقة تقال في كل شاعر ! على ان مرثيته لبغداد كانت ابلغ تعريف به ، وقد تعرض بدءا الى عزها السالف ومجدها الغابر فرسمه في صورة سهلة لا تكلف بها ، وانما هي حديث شعري يحمل رصيده النفسي من الايحاء والتلوين اذ يقول :

اذ هي مثل العروس بادئها ... مهول للفتى وحاضرها
جنة دنيا ودار مغبطة ... قل من النائبات واترها
درت خلوف الدنا لساكنها ... وقل معسورها وعاسرها
وانفرجت بالنعيم وانتجعت ... فيها بلذاتها حواضرها
فالقوم منها في روضة أنف ... اشرق غب القطار زاهرها
من غرة العيش في بلهنية ... لو ان دنيا يدوم عامرها
دار ملوك رست قواعدها ... فيها وقرت بها منابرها
افراخ نعمى في ارث مملكة ... شد عراها لها اكابرها
فلم يزل والزمان ذو غير ... يقدح في ملكها أصاغرها
وافترقت بعد الفة شيعا ... مقطوعة بينها اواصرها
اورد املاكنا نفوسهم ... هوة غي اعيت مصادرها
ما ضرها لو وفت بموثقها ... واستحكمت في التقى بصائرها
واقنعتها الدنيا التي جمعت ... لها ورغب النفوس ضائرها

أرأيت هذا الحديث السهل المؤثر ، لا يعمد الى قعقعة صاخبة تصك سمعك ، ولا ينادي صاحبه على نفسه بالرصانة المفتعلة ليذهب له ذكر في جودة الحوك وزركشة الوشي ! وانما هي نظرة المتأمل ، وعبرة الذاكر حتى اذا اذكر الامس بمباهجه انتقل الى الحاضر بدواهيه فقال :

يا بؤس بغداد دار مملكة ... دارت على اهلها دوائرها
امهلها الله ثم عاقبها ... حين احاطت بها كبائرها
بالخسف والقذف والحريق وبا ... لحرب التي اصبحت تساورها
كم قد رأينا من المعاصي بها ... كالعاهر السوء نام عاهرها
حلت ببغداد وهي آمنة ... داهية لم تكن تحاذرها
طالعها السوء من مطالعه ... وادركت اهلها جرائرها
رق بها الدين واستخف بذي ... الفضل وعز النساء فاجرها
وخطم العبد انف سيده ... بالرغم واستعبدت مخادرها
وصار رب الجيران فاسقهم ... وابتز أمر الدروب ذاعرها
من ير بغداد والجنود بها ... قد ربقت حولها عساكرها
كل طحون شهباء باسلة ... تسقط احبالها زماجرها
يلقى بغي الردى اوانسها ... يرهقها للقاء طاهرها
والشيخ يعدو حزما كتائبه ... يقدم اعجازه يعاورها

هذا كله بعد الانس السابغ ! والنعيم الضافي والعز المقيم !

يا هل رأيت الجنان زاهرة ... يروق عين البصير زاهرها
وهل رأيت القصور شارعة ... تكن مثل الدمى مقاصرها
اين الظباء الابكار في روضة ا ... لملك تهادى بها غرائرها
اين غضاراتها ولذتها ... واين محبورها وحابرها
بالمسك والعنبر اليماني والاطيا ... ب مشبوبة مجامرها
يرفلن في الخز والمجاسد والمو ... شي مخطومة مزامرها
فاين رقاصها وزامرها ... يجبن حيث انتهت حناجرها
تكاد اسماعهم تسل اذا ... عارض عيدانها مزامرها

هؤلاء الاوانس النواعم النوافح العبقة من المسك والعنبر يرفلن في الخز والمجاسد قد صرن وسط الازقة صارخات باكيات يسألن اين الطريق ؟ ولم يكدن يبرزن وجوههن للشمس اذ يمرحن في الابهاء والمقاصير حتى اختطفتهن

حرب زبون لا رحمة لديها ولا عطف فهن كما قال الشاعر :

معصوصبات وسط الازقة قد ... ابرزها للعيون ساترها
كل رقود الضحى مخباة ... لم تبد في اهلها محاجرها
بيضة خدر مكنونة برزت ... للناس منشورة غدائرها
تعثر في ثوبها وتعجلها ... كبة خيل زيفت حوافرها
تسال أين الطريق والهة ... والنار من خلفها تبادرها
لم تجتل الشمس حسن بهجتها ... حتى أجتلتها حرب تباشرها
يا هل رأيت الثكلى مولولة ... في الطرق تسعى والجهد باهرها
في اثر نعش عليه واحدها ... في صدره طعنة يساورها
خرقاء تلقى النثار من يدها ... يهزها بالسنان شاجرها
تنظر في وجهه وتهتف بالثكل ... وعز الدموع خامرها
غرغر بالنفس ثم اسلمها ... مطلولة لا يخاف ثائرها !

هذا شعر صادق مؤثر ! وتصوير حي باهر لكل عذراء رقود الضحى منعمة لا يعرف اهلها صورتها لشدة تصونها ثم هي تذال في الطريق منشورة الغدائر تعثر في ثوبها ولا تقيم الخطو اذ تعجلها كبة خيل تختطف الاوانس من هنا وهناك تسأل اين الطريق والنار من خلف وامام ! اما الثكلى ذات الولد فتولول اثر النعش تنظر الى غريمها القاتل صارخة في وجهه ! ولصدرها شجون لا يبلغها التعبير ، ومن قبل هذه العذراء البكر ومن بعد هذه الثكلى الشبيب صور للاسى رسمتها القصيدة فكانت ابلغ مرثية قيلت في بغداد ! ولا نحب أن نطيل الوقوف لديها كما تستأهل دراسة وتحليلا فلها اخوات اخر من بنات الشعر ينتظرن !

اما رثاء البصرة لابن الرومي فمن اروع آثار هذا الشاعر الفذ ، فقد راعه ان تصبح البصرة بين عشية وضحاها مرعى مباحا لهمل الزنج وطغام السوقة اذ اشعلوا الحرائق بها من ثلاث جهات ، فكانت النيران تتقابل كي تحصد ما أتت عليه من قصور وارواح واموال ثم اشاعوا وطلبوا ممن بقى على الحياة ان يلجأ الى المسجد الجامع كي يأمن على نفسه فصدق الناس لعظيم الهلع ما يسمعون وهرولوا الى بيت الله لائذين ، فحاصرهم السوقة من الزنج واعملوا سيوفهم في الرقاب دون رحمة حتى لم يبق احد ممن اعتصم ببيت الله !! وصارت البصرة انقاضا سلط عليها البثق والحريق فما ترى غير وجوه قد رملتها الدماء وطئت بالهوان والذل ، واذرع منثورة على الطريق لا تجد راحما يجمعها ليدفنها في مكان حتى حق لابن الرومي ان يقول :

بينما اهلها بأحسن حال ... اذ رماهم عبيدهم باصطلام
دخلوها كانهم قطع الليل ... اذ راح مدلهم الظلام
كم اغصوا من شارب بشراب ... كم اغصوا من طاعم بطعام
كم ضنين بنفسه رام منجا ... فتلقوا جبينه بالحسام
كم اخ قد رأى اخاه صريعا ... ترب الخد بين صرعى كرام
كم مفدى في اهله اسلموه ... حين لم يحمه هنالك حامي
كم رضيع هناك قد فطموه ... بشبا السيف قبل حد الفطام
كم فتاة بخاتم الله بكر ... فضحوها جهرا بغير اكتتام
صبحوهم فكابد القوم منهم ... طول يوم كأنه الف عام
من رآهن في المساق سبايا ... بعد ملك الاماة والخدام

هذه المعاني تتكرر دائما في مراثي المدن ، دون ان يقلد فيها شاعر سواه لان الواقع المفجع نفسه قد تكرر فتكرر معه خيال الشاعر وتصويره ، وقد ذهب بعض النقاد الى موازنة بين قصيدتين أندلسيتين تضمان امثال هذه المعاني فحكم للسابق بالابتكار وللاحق بالتقليد ! وهذا لعمري خطأ واضح لان التفات الشاعر الى روعة الاحداث المذهلة لا يجعل تشابهها مدعاة لاغفالها ، وما زلنا نقرأ امثال ذلك حين تحين مناسباته ، ولكل شاعر طريقته الخاصة التي يصور بها مشاعره ! ولا تظن ان رثاء المدن وحده هو الذي يضم هذه المشاهد ، فالبحتري مثلا يرثي المتوكل على الله فيتلهف على قصر الجعفري وانسه ، على نحو قريب مما نرى ، ويتحدث عنه اذ ريع سربه ، واذ ذعرت اطلاؤه وجآذره ، واذ صيح فيه بالرحيل فهتكت استاره وستائره وما زالت امثال هذه المشاهد تثير المشاعر وتذكي الجوانح، فتداولها الشعراء كل ينسج على منواله ما استطاب من لدن الخريمي وابن الرومي وشعراء النكبة في الاندلس الى حافظ ابراهيم في زلزال مسينا وحريق ميت غمر ثم الى ما تلا ذلك من حديث فلسطين ! فالقول هنا بتأثر اللاحق سابقه بعيد عن مطارح الصواب ! على ان الجدة حقا لدى الشاعر العبقري تظهر في الوانه وصوره من ناحية وفي وثبات خياله من ناحية ثانية فابن الرومي يطفر بخياله طفرات موفقة حين يتصور يوم الموقف الاعظم امام المنتقم الجبار وقد هرع الناس الى المحشر الرهيب بين يدي رب العالمين فسألهم عز وجل عن مأساة البصرة ونادى معاصريها من المسلمين متسائلا ؟ اما غضبتم لوجهي ؟ اخذلتم اخوانكم وقعدتم قعود اللئام ! لم لم تغاروا لغيرتي فتركتم الحرمات لمن احل الحرام ؟ ثم يتصور بعد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صاح بالناس اين كنتم حين صرخت كرائم الدور وامحمداه ! لم لم تجيبوهن وقد استنجدن برسول الله وهو دفين تحت التراب ! هذا نمط من التخيل العبقري لا يقدر عليه غير شاعر من طراز ابن الرومي حين يقول :

اي خطب واي رزء جليل ... نالنا في أولئك الاعلام
كم خذلنا من ناسك ذي اجتهاد ... وفقيه في دينه علام
واندامى على التخلف عنهم ... وقليل عنهم غناء ندامى
واحيائي منهم اذا ما التقينا ... وهم عند حاكم الحكام
اي عذر لنا واي جواب ... حين ندعى على رؤوس الانام
يا عبادي اما غضبتم لوجهي ... ذي الجلال العظيم والاكرام
أخذلتم اخوانكم وقعدتم ... عنهم ويحكم قعود اللئام
كيف لم تعطفوا على اخوات ... في حبال العبيد من آل حام
لم تغاروا لغيرتي فتركتم ... حرماتي لمن أحل حرامي
ان من لم يغر على حرماتي ... غير كفء لقاصرات الخيام
كيف ترضى الحوراء بالمرء بعلا ... وهو من دون حرمة لا يحامي
واحيائي من النبي اذا ما ... لامني فيهم اشد الملام
وانقطاعي اذا هم خاصموني ... وتولى النبي عنهم خصامي
مثلوا قوله لكم ايها النا ... س اذا لامكم مع اللوام
امتي اين كنتم اذ دعتكم ... حرة من كرائم الاقوام
صرخت يا محمداه فهلا ... قام فيها رعاة حقي مقامي
لم اجبها اذ كنت ميتا فلولا ... كان حي اجابها عن عظامي
بأبي تلكمو العظام عظاما ... وسقتها السماء صوب الغمام
وعليها من المليك صلاة ... وسلام مؤكد بسلام

وقد عجبت لقول استاذنا الدكتور احمد امين « لقد سقطت بغداد في ايدي التتار وازالوا كل ما فيها من مظاهر المدنية والحضارة وفعلوا بها ما لا يقل عما فعله الاسبانيون في الاندلس وغزا هولاكو وتيمورلنك ونحوهما بلاد الشام واسقطوها بلدا بلدا فما رأينا رثاء صارخا ولا ادبا رقيقا » اذ ان الواقع ان بغداد رثيت برثاء كثير في هذه المحنة كما رثيت جميع المدن التي اسقطها هولاكو وتيمورلنك ! ولكن هذه المراثي لم تبلغ من الروعة مبلغ مراثي الخزيمي وابن الرومي وامثالهما لانحدار الشعر العربي بعامة في عصور الغزو التتري ، فلم يكن للعربية اذ ذاك من فحول الشعراء من يطيلون الملاحم في التفجع والحسرة كما لم يكن لها اذ ذاك ايضا من يجيد الاغراض الاخرى من غزل ووصف وامداح !! انما كان لدينا شعراء فهموا مدلول الشعر على غير وجهه وقد افسدتهم سيطرة النقد القائم على تفضيل التلاعب اللفظي والمحسن البديعي ، ومع هذا كله فقد قام من يقولون الشعر بواجبهم نحو هذه المدن الجريحة فعبروا عن الشعور الاسلامي كما يستطيعون ، والاستاذ احمد امين احد الذين اشتركوا في تأليف « المنتخب المدرسي » فلا بد ان يكون قد قراه واقره ، فكيف يغفل عما به من رثاء بغداد ـ وهو مثل من امثال ـ للشاعر شمس الدين الكوفي ومن ابياته :

ان لم تقرح ادمعي اجفاني   من بعد بعدكم فما اجفاني
انسان عيني مذ تناءت داركم   ما راقه نظر الى انسان
ما لي وللايام شتت خطبها   شملي وخلاني بلا خلان
ما للمنازل اصبحت لا اهلها   اهلي ولا جيرانها جيراني
وحياتكم ما حلها من بعدكم   غير البلى والهدم والنيران
اين الذين عهدتهم ولعزهم   ذلا تخر معاقد التيجان
كانوا نجوم من اهتدى فعليهم   يبكي الهدى وشعائر الايمان
افنتهم غير الحوادث مثلما   افنت قديما صاحب الايوان
ما زلت ابكيهم والثم وحشة   لجمالهم متهدم الاركان
حتى رثى لي كل من ما وجده   وجدي ولا اشجانه اشجاني

هذا نمط مما قيل وقد شغل فيه الشاعر عن تسجيل دوافق اللوعة بمراعاة الجناس بين اجفاني وما اجفاني وبين انسان العين والانسان وحول الطباق بين الموت والحياة والعز والذل! وهذه محنة الادب بعامة في عصور الانحطاط .

اما الشاعر الفارسي العملاق سعدي الشيرازي فقد تأوه للمحنة ، ونظم فيها باللسان الفارسي شعرا يذيب الجماد ، كما نظم فيها بالعربية شعرا يرتفع كثيرا عما قاله معاصروه من شعراء العرب ! ومن الطريف ان الجزء الرابع من كتاب المطالعة العربية وقد كتب عليه ان الاستاذ احمد امين من مراجعيه قد نشر جزءا من مرثية الشيرازي لبغداد ، وهي وان كانت اقل من شعره الفارسي جودة واتقانا الا انها ممتازة بين زميلاتها من العربيات المعاصرات!

اما رثاء دمشق حين سقطت في ايدي التتار فمما نتمثل به هنا قول الشاعر علاء الدين العزولي :

اجريت جمر الدمع من اجفاني   حزنا على الشقراء والميدان
لهفي على وادي دمشق ولطفه   وتبدل الغزلان بالثيران
واحسرتاه على دمشق وقولها   سبحان من بالفل قد ابلاني
لهفي عليك محاسنا لهفي عليك   عرائسا لهفي عليك مغاني
ما كان اهنا العيش في ساحاتها   والدار داري والزمان زماني

ولا اظن القارىء في حاجة الى الاكثار من هذا الوصف التقليدي وانما نسطر بعضه على سبيل المثال .

واما مراثي المدن بالاندلس فقد تكرر الحديث عنها وافردت له كتب وفصول .

الفيوم ـ دار المعلمات   **محمد رجب البيومي**

وعد

يا برعما تفتحا
يا بسمة ان أشرقت
منه على جدبي اطل القطر ريان نديا
تبسم الكون وفاض الظل بالنور وضيا
يا صدفا ما أملحا
الى الاعالي حلقت
يشع فيه الدر بالاشراق والنور غنيا
احلام حب ظل للقيمة والنجم نجيا
يا حلما مجنحا
وفي ثراه اينعت
استشرفت روحي به افقا جديدا عبقريا
شجيرة يخفق فوق زهرها الطل رويا

يا باحثا عبر الازل
يا شفة ما انعما
للحب عن سر كبير ضل في ثغر صغير
فلتحطموا انوالكم يا ناسجي اغلى الحرير
كأس دهاق لم تزل
ويا رحيقا بلسما
تدور لم يرو الندامى لا ولا مل المدير
عمري فداء رشفة لذت وفاحت بالعبير
كم علل بعد نهل
حلاوة لكنما
تجرعوها والهوى سر كما كان كبير
لا الشهد يدري كنهها ولا معتق العصير

يا باب جنة الهوى
ما زال ما احرزت من سر على الوهم خفيا
تطلعت الى الذرى
آمال قلب عاش بالابهام والغيب حفيا
بورك فيها من رؤى
ابديت منها لمحا اذ جدت بالوعد سخيا

ليوبولدفيل   **جمال مرسي بدر**

صالح الصمادي

بقلم البدوي الملثم

* * *

ولد صالح الصمادي عام ۱۸۹۳ في نابلس ، المدينة التي دوخت الغزاة الفاتحين ، وافاءت على فلسطين وشقيقاتها العربيات عشرات من الزهرات الشذية الفوح ، المعطرة الارج ، وافواج من الرجالات المثقفين ، المغالين بامتهم ، المعتزين بنبيهم الكريم ، الفخورين بكتابهم العظيم !

ودرس صالح العلوم الابتدائية والاعدادية في مسقط راسه ، وانهى دراسته في سلطاني بيروت ومن عاصمة الساحل اللبناني يمم الاستانة ودخل جامعتها التي تخرج منها العشرات من احرار العرب ومثقفيهم ، ونال شهادة كلية الحقوق في علم السياسة والحقوق .

ومنذ حداثة سنه الى عام التحاقه بجامعة الاستانة تميز المرحوم الصمادي بحماس لعروبته واندفاع في مناهضة من يؤذي قومه ، ويسعى الى قهرهم واذلالهم ، وطمس معالم تاريخهم والغض من امجادهم .

وفي الاستانة انضم صالح الى « المنتدى الادبي » (١) وجاهر بتأييد الحركة العربية الحديثة ، والدعوة الى استقلال امته والاعتراف بحقها في الحياة ، ولشدة حماسه النابع من قلبه الطيب اطلق عليه رفاقه العاملون معه في الدعوة العربية لقب « شيخ العرب » .

وفي عام ۱۹۱٦ دعي صالح مع زميله العالم المرحوم عادل زعيتر الى الجندية وعين كل منهما ضابطا احتياطيا ولما اضطهد الترك العرب ونشبت الثورة العربية هرب مع المرحوم زعيتر ونفر من الشبان العرب من الجيش العثماني ، واجتازوا جبل العرب الى قبيلة الرولا فقبيلة الحويطات التي كان يتزعمها عوده ابو تايه ، ولقوا الاهوال في طريقهم الى الجيش العربي اذ ضلت قافلتهم السبيل في البادية التي بين هاتين القبيلتين ففقدوا الماء ولحقهم من العطش الشديد ما جعلهم مشرفين على الموت ، ولا امل لهم في الحياة ، ثم ذهب فارسان من القافلة ، احدهما الى الشرق والاخر الى الغرب ، علهما يعثران على نبع ماء ، وما هي الا اربع ساعات حتى جاء الخبر بالاهتداء الى بئر فوقع صالح وعادل ورفاقهما ساجدين لله تعالى ، ووقفوا نفوسهم على امتهم التي تحدروا منها وعاهدوا الله على ذلك ، ثم اقبلوا على الماء وارتووا ، ثم توجه جمعهم الى الامير فيصل بن الحسين قائد الجيش العربي الشمالي في ابي اللسن .

وقبل ان يلحق صالح وزملاؤه من الضباط العرب بالجيش العربي المعسكر في ابي اللسن ، سجن في الاناضول ونظم في سجنه شعرا قوميا رائعا ، ومن قوله متحديا أعداء امته :

ما راعني انني اغدو صريع أذى　　وسط السجون ومصلوبا على النصب
لم يلهني عن بني قومي وعن وطني　　وعد الطغاة وبذل المال والرتب
ان يقبض الحر او يبقى فان له　　ذكرا يخلد في الاسفار والكتب

وقال فقيد العروبة من قصيدة اخرى :

قد اوجس الاتراك منا خيفة　　فاستحسنوا اطفاء كل منار
فزججت في قعر السجون وما دروا　　ان المحابس جنة الاحرار
ان كان ذنبي ان اعلم امتي　　فاستكثروا من هذه الاوزار
ان يصلب الاعداء جسما فانيا　　فالروح تاوي مسكن الابرار
تبقى البلاد اذا تعهد امرها　　عدل ولا تبقى مع الاشرار

ودخل الجيش العربي الفاتح دمشق وعلى راسه الشريف فيصل بن الحسين وبعد ان استتب الامر عين صالح سكرتيرا لوزارة العدلية في عهد وزيرها المرحوم اسكندر عمون فاستاذا في معهد الحقوق بدمشق .

وبعد ان اجتاحت سورية رياح الفرنسيين ودك العرش الفيصلي خرج صالح مع من خرج من اخوانه الاحرار الى عمان ، مكان التجمع العربي بعد ان بلغها الامير عبد الله بن الحسين لاسترداد سورية من ايدي الغاصبين ، ونتيجة لمساندة الانكليز في الاردن الفرنسيين في سورية ، استحوذ اليأس على رجالات العرب وقادة حركتهم ، فبارح عمان من بارحها من الاحرار ، واقام فيها من اقام من المناضلين ، وكان صالح من الفريق المقيم ، وبعد ان تألف مجلس المستشارين برئاسة المرحوم رشيد طليع عين صالح حاكم صلح في عمان فرئيسا لمحكمة بداية السلط فعضوا في محكمة الاستئناف بعمان ، ونظرا لخلافه مع وزير العدلية نقل صالح حاكم صلح وقاضيا شرعيا لقضاء جرش وبعد مدة استقال وعاد الى عمان ليزاول المحاماة ، فكان فيها المثل الاعلى للمحامي الشريف ، النظيف اليد ، الطيب الاحدوثة .

واحياء لحركة التحرر العربي ولذكر «جمعية أم القرى» التي وفاها حقها المرحوم الشيخ عبد الرحمن الكواكبي ، رائد الوعي العربي في كتابه « مذكرات جمعية ام القرى » تأسست في عمان عام ۱۹۲۳ جمعية سياسية سرية باسم

(١) انشيء « المنتدى الادبي » في عام ۱۹۰۹ ومؤسسوه هم : عبد الكريم قاسم الخليل ، يوسف سليمان حيدر ، سيف الدين الخطيب ، جميل الحسيني ، رفيق رزق سلوم ، على ان يكون ندوة للشبان العرب في الاستانة ، يجتمعون فيه ، ويختلفون اليه لاستماع المحاضرات التي كانت تلقى فيه ، ومطالعة الكتب والصحف ، وكان يأوي اليه من الطلاب العرب من لا تساعده حالته المالية على المبيت في الفنادق والبيوت ، وعاش «المنتدى العربي» في الاستانة حتى ١٩١٥ فاغلقته السلطات التركية بعد ذلك ، وادى خدمات جليلة للعرب ، وبلغ شأوا عظيما في ميدان السياسة لم تبلغه جمعية من الجمعيات الاخرى ، خصوصا ابان عقد الاتفاق بين الزعماء العرب والاتحاديين ، وكان الوزراء والعظماء والكبار يحضرون حفلاته بلا انقطاع ، ولما ضاقت به الدار القديمة التي كان يشغلها في « بار ماق قبو » انتقل الى دار فخمة واسعة من حي « كدك باشا » .

مـدى

دوامة . وانت . شباك ، ما ارحبنا ! والدرب .. يا للفلال !
الحيرة السمراء عيناك ، والصدر اللذيذ نفرة للجمال
حمامتي ، الريح ... أي انتظار ؟ وانا ، لو تعلمين ، السؤال
حمامتي ، الريح ... لا تهدئي . لمي بعينيك شرود الخيال
افهم . لا ابوح . احلى . تظل عفة الحب بنا ، والكمال
اخضب القلب بأغنية من اللعل في دروب المحال
أصيّر الاخصاب كوخا لنا نسكنه على قديم التلال
افهم . لا ابوح . والامس لا اسأله . الأمس لفح الرمال
ملء يدينا نحن : الصحو . يا ما الصحو ادماه كثيف الظلال
قد هيأ الله لنا سهرة ، وقرب دار ، ولقاء حلال
ملء يدينا نحن : الحب . بوحي... آه بوحي ... تتفتق دوال !
اتعبتِ ام اتعبتُ ايامنا ؟ ولم يزل في شفتينا ابتهال
قربت .. قربت .. فما حيرة ؟ ما طائر في الصدر؟ ما.؟ ما الدلال؟
أسأل القرط ، ام الكحل ، ام إحدوثة العقد ، وغمض الوصال ؟
اخاف أن عريت اوهامنا فيخجل الحب الكريم الخلال
ظلي . ويا الاجمل ظلي : انا تاريخ ظن في سراديب بال
اراك حسبي ، وتحبينني . ومن بعيد : من بعيد تنال ...
وان غفوت اسمع المشتهى يقول لي ... يقول ما لا يقال !

دوامة . والدرب ؟ هذا المدى دحرج في عيني لون الضلال !!

حلب **علي الزيبق**

« جمعية ام القرى » وكان صالح في عداد مؤسسيها وهم:
علي رضا الركابي ، محمد الشريقي ، صالح الصمادي ، توفيق سنو ، امين الجعفري ، عبد القادر الجندي ، عبد الستار السندروسي ، مسلم العطار ، طارق الجندي وغيرهم .

وعندما نشطت حركة المعارضة الاردنية ضد الانكليز والمعاهدة الاردنية ـ البريطانية نال المرحوم صالح الصمادي امتياز جريدة اسماها « صدى العرب » وصدر العدد الاول منها في ١٣ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٢٧ ، وكانت هذه الصحيفة القومية مسرحا لاقلام أعلام المعارضة ، فلم يرض المسؤولون عن هذا (الصدى) ، وبعد عام من صدورها صدر قرار من المجلس التنفيذي (مجلس الوزراء بلغة اليوم) بتعطيلها لنشرها مقالا لاذعا انتقد فيه كاتبه ، وهو المرحوم الصمادي ، مشروع المعاهدة الاردنية ـ البريطانية ، واقامت النيابة العامة الدعوى على صاحبها فحكم عليه بالسجن مدة شهر ونصف الشهر ، لكن الامير عبد الله بن الحسين اصدر ارادته بالعفو عن صالح وكفت التعقيبات القانونية بحقه .

ولبث صالح يعمل في الحقل الوطني ، ويشيع روح التوعية في صدور الطلاب والمعارضين ، وكانت تربطني به روابط الادب والاخاء والمودة ، وفي ليلة من ليالي شتاء عام ١٩٣٣ كمن له وحش بشري ، وهو خارج من « مقهى حمدان » بعمان في طريقه الى بيته ، واهوى عليه بهراوة غليظة اصابت رأسه ، وبعد ايام قلائل قضى هذا الوطني المؤمن نحبه ، وفاضت روحه الى بارئها هربا من شرور الناس ، وبموته خسرت القضية العربية مناضلا شريفا طيب السيرة ، شب على حب قومه والمغالاة بوطنه العربي الكبير ، والذود عن حياضه ولو ادى به ذلك الى التهلكة والنطع والاستشهاد !

عمان ـ الاردن **البدوي الملثم**

ابن روميو

تمثيلية فكاهية

للروائي الفرنسي الساخر هنري بيير كامي

ترجمة سمير شيخاني

الفصل الاول

(المشهد يمثل قاعة العمل في منزل آل كابيوليت) .

كابيوليت الجليل ـ عبثا احاول استنطاق محفوظات اسرتي النبيلة . يستحيل اكتشاف اصل الحقد الازلي المتبادل بين اسرتي كابيوليت ومونتاغيو .

السكرتير ـ لقد فرغت الآن من الاطلاع على آخر رق ، فلم اعثر فيه على شيء .

كابيوليت الجليل ـ لا بأس . كنت اود الاطلاع على اصل حقدي المفترس على آل مونتاغيو . ولكن هذه ابنتي جولييت تدخل الحجرة .

جولييت ـ ابتاه ، استودعك سر نفسي .. انا احب روميو ، ابن آل مونتاغيو . وهو يحبني . اعقد زواجنا .

كابيوليت الجليل ـ المطهر ! انت تتزوجين ابن عدوي التقليدي ! لتنتقل عيناي من محجريهما اذا انا منحت موافقتي . لقد ابديت رأيي !

الفصل الثاني

(المشهد يمثل شرفة جولييت) .

روميو ـ انه منتصف الليل . ها انذا امام منزل جولييت . الخزانة ذات المرآة مشدودة الى شرفتها . انها الاشارة المتفق عليها . يمكنني ان اصعد . لاضعن هذه السلم المبتذلة على الجدار ، ولاصعدن الى شرفة جولييت لاعلق عليها سلمي الشعرية الحريرية . (يتسلق ويعلق السلم الحريرية على الشرفة) . الآن لانزلن ، فأبعد سلم الحديقة المبتذلة ، واتسلق نهائيا السلم الحريرية . (يعود فيصعد الى الشرفة) .

جولييت ـ روميو العزيز ، بسبب الحقد المتوارث ، ابي يرفض الموافقة على زواجنا .

روميو ـ ان اهلي كذلك عنيدون ، ولا يلينون . والحقد الازلي الذي يفرق بين اسرتينا يصنع بؤسنا وتعاستنا .

جولييت ـ لم يبق امامنا سوى الموت .

روميو ـ لا ، ايتها العزيزة جولييت لقد استشرت ناسكا عجوزا من اصدقائي . فاعطاني مخدرا من صنعه .

جولييت ـ انا لا افهم شيئا .

روميو ـ ستفهمين . ان هذا المخدر الذي سنتناوله سيمنحنا مظهر الموت ، ويجعلنا نرقد قرابة ستين سنة . ولدى استيقاظنا ، يكون حقد ذوينا قد هدأ ، ولا ريب . واذ ذاك يمكننا ان نتبادل الحب في امان واطمئنان .

جولييت ـ ولكن ، ايها العزيز روميو ، اذا انا لم اخطىء في الحساب ، فاننا نكون لدى استيقاظنا قد بلغنا الثامنة والسبعين من عمرنا ، ما دمنا الآن في الثامنة عشرة ؟!

روميو ـ لا ، فهذا المخدر العجيب يحفظ الشباب . فبعد ستين سنة نستيقظ من رقادنا ونحن في ميعة الصبا والشباب ، كما نحن الآن !

جولييت ـ انه لامر رائع . لنشرب ولكن قبل ذلك ، لنضع على الموقد هذه الرسالة التي نوصي فيها بدفننا معا . لنشرب !

روميو ـ لنشرب ! (يشربان ، ويستغرقان في النوم) .

الفصل الثالث

(المشهد يمثل حجرة) .

روميو ـ كل شيء تم بنجاح . لقد رقدنا ستين سنة تحت تأثير المخدر . مساء امس ، حوالي الساعة السابعة والربع ، استيقظنا واستطعنا مغادرة ضريحنا العائلي دون لفت الانظار .

جولييت ـ ونحن ما نزال شابين جميلين مثلما كنا يوم وفاتنا المصطنعة .

روميو ـ سيكون باستطاعتنا ان نتبادل الحب بحرية . جميع ذوينا ماتوا منذ زمن طويل . آل كابيوليت وآل مونتاغيو انتهوا بالتذابح حتى آخر واحد منهم . نحن الخلفان الوحيدان لهاتين الاسرتين المتعاديتين .

جولييت ـ لا ، ايها العزيز روميو ، لانني ساصبح اما .

روميو ـ ستصبحين اما ؟

جولييت ـ اجل . لقد نسيت ان اطلعك على الخبر .. فقبل تناولنا المخدر كنت حاملا منك .

روميو ـ يا للجنون ! اذن فانت حامل من ستين سنة ؟

جولييت ـ اجل ، ولم يكن بوسعي ان اضع طفلي اثناء رقادي .

روميو ـ حقا ما تقولين ، ما دمت كنت في سبات طويل . ولكن ليس لدينا وقت نضيعه . سأهرع من فوري الى الطبيب .

الفصل الرابع

(المشهد نفسه) .

روميو ـ انه لامر غريب . لقد وضعت جولييت طفلا في التاسعة والخمسين . ان هذا البريء العزيز يخيفني بلحيته الرمادية الطويلة . ولكن هوذا بين ذراعي المرضعة .

الابن ـ لتحل عليك اللعنة يا ابتاه . ان امي قد اطلعتني على حكاية المخدر . بفضل اختراعك السخيف قضيت في عزلتي الكئيبة المظلمة هذا العمر دون ان استطيع ان احيا حياتي . بفضل حبك الانآني ادخل هذا العالم في السن التي يقترب فيها المرء من خروجه من العالم . والسخرية الكبرى في الامر انني ابدو جدا لوالدي .

روميو ـ عفوا ، عفوا ، يا بني ، عفوا !

الابن ـ لا ، لتكن ملعونا ! انا لم استطع ان انمو نموا طبيعيا لاني ضغطت طوال خمسين سنة في احشاء امي .. تجاعيد جبيني وحدها ازدادت عمقا سنة بعد سنة . لحيتي وحدها نمت وعلاها البياض . لتكن ملعونا لانك سببت لابن العقد السادس ذل رؤية نفسه ملفوفا بلفائف الطفل الرضيع .

روميو ـ انا احبك رغم كل ذلك . انت ابني ، انت من دمي . دم آل مونتاغيو .

الابن ـ (صائحا) ـ آل مونتاغيو! يقول آل مونتاغيو ! ان هذا الاسم وحده يجعلني اغلي غضبا ! اني اشعر برغبة شديدة للتقتيل ! القتل ، القتل ! ويها لاهل مونتاغيو . (يدير مصاصته بيده ويرمي بها روميو) .

روميو ـ (واقعا ارضا) ـ ابني ، قتلتني ! سأموت بعد دقائق .

جولييت ـ (هارعة) ـ يا للسماء! ماذا يجري ؟

روميو ـ سأموت ايتها العزيزة جولييت كابيوليت .

الابن ـ (صائحا) ـ كابيوليت ! لقد سمعت ذلك جيدا ! كابيوليت ! ان هذا الاسم يجعلني فجأة اغلي غضبا . القتل، القتل ! ويها لآل كابيوليت . (يخنق جولييت) .

جولييت ـ سأموت .

المرضعة ـ ماذا فعلت ايها الولد الشرير ؟

روميو ـ (بصوت ضعيف) ـ ان اقتراب الموت يمنحني ذكاء كبيرا . نحن نموت ضحية حبنا المشؤوم . ابننا من ناحيتك تجري في عروقه دماء آل كابيوليت . لم يستطع ان يتحمل رؤية واحد من آل مونتاغيو .. حقده للجنس استيقظ في نفسه. من اجل ذلك قتلني . (يموت) .

جولييت ـ (بصوت ضعيف) ـ قضاء وقدر ! ان هذا الطفل تجري في عروقه كذلك ، من ناحية روميو ، دماء آل مونتاغيو . قتلني بسبب حقده على آل كابيوليت . (تموت) .

الابن ـ (صائحا) ـ انه لامر رهيب .. أن الدماء المتعادية دماء آل كابيوليت وآل مونتاغيو ، تتعارك في نفسي . ويها لآل كابيوليت ! ويها لآل مونتاغيو ! (يتناول سكينا بكل يد) .. الموت لآل كابيوليت ! (يطعن نفسه ناحية اليمين) . الموت لآل مونتاغيو (يطعن نفسه ناحية اليسار ويقع ميتا) .

المرضعة ـ قضاء وقدر ! قضاء وقدر !

سمير شيخاني

خمس قصائد اخرى

الى سعيد عقل

١٩٦٥/٢/٧

الآن ادرك قلبي ان جاز حقا حدوده ... فراح يلهو ويلهو بالذكريات البعيده
كالببر اما تراخت عقباه ، والضعف اودى ... ببطشه وقواه ... في الصيد يدعو حفيده
هذا الذي في صباه الادغال ترعش منه ... اخنت عليه الليالي ... فصيرته قعيده

١٩٦٥/٢/١٩

رتلت ما قد عناك رمزا ... فسر بلواك لا يباح
وخفت والمرء ذو حياء ... فصم في قلبك النواح
يا راحلا ... والجمال باق ... هل حز في نفسك البراح ؟

١٩٦٥/٢/٢٦

مباح ... وهذا حق كل معذب ... لان يعصر الايام خمرة اسعاد
فماذا تبقى للتعفف بعدما ... تتوج ايمان الشقي بالحاد ؟
دعوه.. فصدق الموت اودى بلبه ... وكبل ما يصبو اليه باصفاد...

١٩٦٥/٣/١

نشاطك سر اهتمامي الغريب ... ورعشة قلب يخاف السكون !
الا ايقظي فيه غافي الهوى ... بزوبعة حلوة من فتون
وحشي الجنون يثير الجنون ... وهل في الحياة نهى كالجنون !

١٩٦٥/٣/٩

شوهتها يا نار ... شوهتها ! ... اواه ، هل تدرين ما تصنعين ؟
الحسن اغناها بزاهي الصبا ... وانت بالتخريب .. لم تولعين ؟
بالله يا مرآتها ... بالوفا ... صوني كما قد كان ما تعكسين

حلب — علي الناصر

العرب في ميورقة

بقلم الدكتور فؤاد جبور حداد

من « العروة الوثقى » في لندن

* * *

اتيح لي في الصيف الماضي ان ازور مجموعة من الجزر تقع شرق اسبانيا اسمها جزر البليار وتتألف من ثلاث جزر هي ميورقة وهذه الجزيرة الكبرى وتتوسط جزيرتي منورقة في الشمال وايبيزا في الجنوب (ولعل الاسم ايبيزا تحريف للاسم العربي القديم لها اليابسة) .

واول ما استرعى انتباهي وانا في ميورقة عروبة بعض الاسماء فيها ، فهناك مدينة اسمها « بني سالم » واخرى « الباهية » وثالثة « الجيدة » ورابعة « حمص » . وقام قاربان بنقلنا من جزيرة الى اخرى كان اسم الاول «نزار» والثاني « امينة » .

وعندما وصلنا العاصمة « بالما » رايت في الدليل انه توجد في المدينة ثلاثة اثار باقية تعود الى ايام العرب في الجزيرة وهي قصر الامارة واسمه اليوم « قصر المدينة » وهو لا يزال حتى الآن مثالا للفن العربي المغربي ويستعمل اليوم كمركز للشرطة والبوليس والآخر مجموعة من الحمامات العربية ويملكها رجل اسباني يتقاضى رسما زهيدا مقابل أن يطوف بالزائرين فيها وهي تشبه الحمامات التركية اليوم ، والامر الثالث شارع اسمه « شارع المدينة » له اقواس مغربية وينتهي (بعقر المدينة) وهو لا يزال كما كان عليه ايام الحكم العربي ويشبه شوارع القدس القديمة اليوم .

احببت ان اعرف المزيد عن تاريخ العرب في تلك الجزر فراجعت النفح والمغرب والذخيرة فوجدت انه كان للعرب في تلك الجزر تاريخ ادبي وسياسي عظيم . فقد امتد الحكم العربي هناك اكثر من ٤٠٠ سنة كانت فيها تلك الجزر عربية تماما وكان اهلها لا يتكلمون الا العربية . ويقول ابن سعيد في كتابه « المغرب في حلى المغرب » (فتح هذه الجزر عبد الله بن موسى بن نصير ولكن تم الفتح ايام عبد الرحمن الاوسط اذ جهز عبد الرحمن اسطولا من ٣٠٠ مركب الى جزيرتي منورقة وميورقة لاضرار اهلها بمن عبر بها من مراكب المسلمين ففتحها سنة ٢٣٤ هـ) .

بعد ذلك يبرز اسم هذه الجزر ايام ملوك الطوائف بروزا ظاهرا عندما استقل بها الملك مجاهد العامري .

كان مجاهد بن عبد الله العامري يلقب « بملك الجزر ودانية » . واما دانية فهي من اعمال بلنسية في الاندلس وكانت دائما متصلة بالجزر سياسيا واداريا . وكان لمجاهد وخليفتيه اقبال الدولة وناصر الدولة بلاط يقصده الادباء والشعراء من كل مكان . ولم يكن ليقل كثيرا عن مستوى بلاط المعتمد بن عباد . ففي بلاط ميورقة نجد جماعة من اكبر ادباء الاندلس في ذلك القصر مثل ابن سيدة وابن اللبانة وابو العرب الصقلي وابن حمديس وادريس ابن اليمان ، هذا بالاضافة الى الادباء والشعراء المحليين وهم كثر .

ومن القصص التي تظهر اهتمام ملك ميورقة بالادب والادباء ان ابا غالب بن التياني وهو من اعلام اللغة قد صنف كتابا وقف عليه مجاهد العامري فأعجبه فبعث اليه بالف دينار وكسوة على ان يزيد فيه انه صنفه باسم مجاهد العامري فقال ابو غالب أن كتابا صنفته لله وطلبة العلم لا اصرفه على اسم ملك ، واعاد الى مجاهد الالف دينار والكسوة . فزاد في عين مجاهد وعظم في صدور الناس وقيل في ذلك « هكذا ينبغي ان تكون الملوك وكذا يجب ان تكون العلماء » .

اما ابن اللبانة فقد اشتهر امره عندما اتصل بالمعتمد فقد قال فيه مدحا كثيرا وقال فيه بعد نكبته رثاء كثيرا ايضا ، وبقي وفيا لذكرى المعتمد طول حياته . ولكن لابن اللبانة تاريخ ادبي في ميورقة قبل ذهابه الى المعتمد وبعده . فقد عاش في ميورقة ايام ناصر الدولة يمدحه فيجزل الاخير في عطائه . ومن قوله في ناصر الدولة :

غمرت بالاحسان ارض ميورقة	وبنيت ما لم يبنه الاسكندر

وقوله في وصف ميورقة :

بلد اعارته الحمامة طوقها	وكساه حلة ريشه الطاووس
فكانما تلك المياه مدامة	وكان ساحات الديار كئوس

وبقي الحال كذلك الى ان حدث له ما حدث للمتنبي في بلاط سيف الدولة فقد حسده الشعراء المحليون واخذوا يؤلبون عليه الامير . فضاق ابن اللبانة بهم ذرعا وطلب من الامير ان يسمح له بالذهاب . وقال في ذلك :

عسى رافة من سراح كريم	ابل ببرد نداه الغليلا
وعلي اراح من الطالبين	فاسكن للامن ظلا ظليلا
ومن بله الغيث في بطن واد	وبات فلا يامنن السيولا
لقد اوقدوا لي نيرانهم	فصيرني الله فيها الخليلا
افر بنفسي ولو اصبحت	ميورقة مصرا وجدواك نيلا

وذهب ابن اللبانة الى المعتمد وبقي عنده حتى نكبته ولما زال ملك المعتمد لم يستطع ابن اللبانة العيش مع المرابطين فعاد الى ميورقة ومات هناك ودفن فيها ازاء ابي العرب الصقلي .

وذهب ايضا ابن حمديس الى ميورقة بعد زوال ملك المعتمد وفي ديوانه قصيدة طويلة يمدح فيها ناصر الدولة ويصف خيلا اهديت اليه . ولعل ابن حمديس قد وجد في ميورقة جزيرة تذكره بوطنه الام جزيرة صقلية . وتختلف المراجع في مكان وفاة ابن حمديس او بعضها

يقول انه توفي في ميورقة ولكن المرجح انه توفي في بيجاية .

اما « ابن سيدة » فقد كان منقطعا على الامير مجاهد العامري وتفرغ ايامه للعلم والدرس ووضع كتابه «المحكم» ايام حكمه وبتشجيعه .

والشعراء الذين قصدوا ميورقة ايام حكم ملوك الطوائف كثيرون منهم ابو حفص بن برد والفضل بن الدراج وابو عبد الله محمد بن خلصة . وهذا ابن الدراج يمدح ابن مجاهد فيقول :

واذا ما خطوب دهر اطافت　　وانافت كانها الجن تسعى
كلاتنا من لسعهن ايادي　　ملك يكلا الانام ويرعى
ملك أن دعاه للنصر يوما　　مستضام كفاه نصرا ومنعا
او عراه السليب صفرا يداه　　جمع الرزق من يديه واوعى

وقال أبو عبد الله محمد بن خلصه يمدح اقبال الدولة :

اطع امر من تهواه ، من عز قد بزا　　كفى بالهوى ذلا وبالحسن معتزا
ولما لحاني الدهر لحو العصا ولم　　اجد من بنيه غير ما زادني وخزا
جعلتك لي حصنا ونبهت مقولا　　جرازا جذاذا لا كهاما ولا كزا
ليمنح بك الله الاماني والمنى　　ولا تفجع الاداب فيك ولا ترزا

ومن الطريف انه يتبع الطريقة العربية القديمة في المدح اذ يبدأ بالتغزل اولا ثم يتخلص منه الى الممدوح .

وقد انتجت جزيرة ميورقة عددا لا بأس به من الشعراء والادباء المحليين كني بعضهم باسم ميورقة مثل ابو الحسن نور الدين الميورقي وابن عبد الوالي الميورقي . ومنهم من لم يكنى باسم الجزيرة مثل ابو جعفر البني وعبد البر ابو محمد بن فرسان .

اما ابو الحسن الميورقي فيقول عنه صاحب نفح الغيب « كان من الفضلاء العلماء وله مشاركة جيدة في العلوم وله نظم حسن » ومن شعره :

وذي هيف راق العيون انثناؤه　　بقد كريان من البان مورق
كتبت اليه هل تجود بزورة !　　فوقع (لا) خوف الرقيب المصدق
فايقنت من (لا) بالعناق تفاؤلا　　كما أعتنقت (لا) ثم لم تتفرق

ومن شعراء ميورقة ايضا أبو جعفر البني ولهذا الشاعر قصة محزنة فالظاهر انه كان بقدر اجادته للشعر مستهترا في حياته الى حد الاسراف . ويصفه صاحب المسهب فيقول « من سوابق حلبة عصره وغرر دهره . وهو مطبوع النظم نبيله . واضح نهجه في الاجادة وسبيله ، ما نطق متشرعا ولا نظر متورغا ولا اعتقد حشرا ولا صدق بعثا ولا نشرا . . . الخ » ويظهر ان الرأي العام في ميورقة قد اجبر ناصر الدولة على نفيه فاقلع في البحر ثلاثة اميال ونشأت ريح ردته فلم يتجاسر احد من اخوانه على زيارته فكتب اليهم :

احبتنا الاولى عنتوا علينا　　فاقصونا وقد ازف الوداع
لقد كنتم لنا جذلا وانسا　　فما بالعيش بعدكم أنتفاع
اقول وقد صدرنا بعد يوم　　اشوق بالسفينة ام نزاع
اذا طارت بنا حامت عليكم　　كأن قلوبنا فيها شراع

ومن شعره ايضا :

نظرت اليه فاتقاني بمقلة　　ترد الى نحري صدور الرماح
حميت الجفون النوم يا رشا الحمى　　واظلمت ايامي وانت صباحي

ومن شعره ايضا :

قالوا تصيب طيور الجو اسهمه　　اذا رماها فقلنا عندنا الخبر
تعلمت قوسها من قوس حاجبه　　وأيد السهم من الحاظه الحور

اما جزيرة منورقة فمن اشهر ادبائها واليها ابو عثمان سعيد بن الحكم القرشي . وقال عنه ابن سعيد خبرني احد من اجتمع به انه لقي منه برا حبب اليه الاقامة في تلك الجزيرة المنقطعة . وذكر انه ركب معه يوما فنظر الى حمالة سيف ضيقة قد اثرت في عنقه فامر له باحسان وغنباز وكتب معه :

حمالة السيف توهي جيد حاملها　　لا سيما يوم اسراع وانجاز
وخير ما استعمل الانسان يومئذ　　لحسم علتها الباس غنباز

(والغنباز) عند اهل المغرب صنف غليظ من الملبوس يستر العنق ومن شعره ايضا :

ليس المدامة مما استريح له　　ولا مجاوبة الانغام والوتر
وانما لذتي كتب اطالعها　　وصارمي ابدا في نصرتي قلمي

وقد استقل ابن الحكم في ميورقة عند اختلال امر الموحدين في القرن السابع الهجري وتوفي عام ٦٨٠ ودام سلطانه عليها نحوا من خمسين عاما .

اما جزيرة « يابسة » فمن اشهر ادبائها ابو علي العبدري اليابسي وذكر صاحب الذخيرة ان صلته على القصيدة كانت مائة دينار ولا يمدح احدا الا بهذا الشرط . وقال عنه ابن بسام « صار شعره سمر النادي ومقول الحادي وتمثل الحاضر والبادي وطفق يتردد على ملوك الاندلس تردد الكاس على الشرب ويجري على اهوائهم جري الماء على الغصن الرطب » .

ومن شعره في لحية طويلة عريضة :

او انها دون السماء سحابة　　لم تخترقها دعوة المظلوم

ومن شعره ايضا :

ثقلت زجاجات اتتنا فرغا　　حتى اذا ملات بصرف الراح
خفت فكادت تستطير بما حوت　　ان الجسوم تخف بالارواح

ومن ادباء جزيرة « يابسة » ايضا ابو بكر العطار اليابسي ، وقد عاش في مدة ملوك الطوائف . ومن شعره :

والجيش قد جعلت ابطاله مرحا　　تختال عن خيلاء السبق العتق
هي البحور ولكن في كواثبها　　عند الكريهة منجاة من الغرق

وعندما جاء المرابطون عينوا على الجزر عبد الله بن محمد المشهور بابن غانية ثم ملكها بعده اسحق ثم ابنه عبد الله ثم صارت للموحدين وتوالت عليها ولايتهم الى ان اخذها الاسبان من ابي يحي بن عمران التينملي وقال عنه المقري في نفح الطيب «كان بخيلا غير حسن التدبير سامحه الله» .

وهذه رواية ابو عميرة المخزومي في كتابه تاريخ ميورقة عن سقوط الجزيرة في ايدي الاسبان ، قال :

« ان سبب سقوطها ان اميرها احتاج الى الخشب من جزيرة يابسة فأنفذ قطعة حربية اليها علم بها والي طرشوشة الاسباني فجهز اليها من اخذها . فعظم ذلك على العالي وحدث نفسه بالانتقام فلما سمع ان مركبا جاء من طرشوشة ومعه مسطحا من برشلونة ارسل ولده الى جزيرة يابسة فاخذها واخذ ايضا مركبا كان هناك لاهل جنوه . وظن انه

بلادي ربيع

قفي واسألي عن رفيف المنى ولا تسألي عن مسير العمر
وحيي الربيع باضحوكة يحييك ما طال عمر الزهر
وسيري مع الليل في سره مسير النجوم وسير القمر
فناء هو العمر في صمته وما الليل الا السرى والسمر

* * *

تقولين : ما انت والحب والذكريات وعمر شرود الصور
ودنيا هوى لم تزل كلما تناءت رددت اليها البشر
كان الهوى شعلة كلما خبت زدت عودا فزادت شرر
انا شاعر من سفوح الشمال انا .. من بلاد الجمال العطر
بلادي لها الشمس تهليلة على جبهة الصبح لا تنحسر
بها قاسيون ، كعرش الاله يشق السماء رحيما .. خطر
بها بردى .. بردى نفحة العطر والخمر والوشوشات الزهر
بها جنة الخلد ، مهد الربيع على شرفة الكون لا تندثر
انا قادم من بلاد الفوى بلاد الجمال الندي النضر
باعماق قلبي رؤى شاعر خفوق المنى راعش المنتظر
وهذا ربيع ، وعمري ربيع وعمر الربيع رقيق الصور

* * *

قفي واسألي عن اماني الشباب ولا تسألي عن ضحايا القدر
وكالروض لا تسألي العابرين أشوك جنى غرسه ام زهر
وكاللحن مري على السامعين ولا تسألي ما مصير الوتر
وكالغصن رفي على العاشقين ولا تسألي عن مسير العمر
قفي ، زورة العام عود الربيع وخفق المنى شعلة تستعر
ودرب الزمان طويل المدى له روضة بالمنى تزدهر

حمص — بسام جندلي

غالب وغلب وغاب عنه انه اشأم من عاقر الناقة . فلما بلغ الاسبان ذلك جمعوا ٢٠ الفا من اهل البلاد وجهزوا ١٦ الفا في البحر . ومن سوء الاتفاق انه حدثت فتنة في ميورقة بين الناس امر الوالي على أثرها ان يأتيه صاحب الشرطة باربعة من كبراء المصر فساقهم وضرب اعناقهم وكان فيهم اثنان خالهما أبو حفص بن سيري ذو المكانة الوجيهة . فغضب ابن سيري وعاهد نفسه على طلب الثار واصبح الوالي يوم الجمعة منتصف شوال والناس من خوف الحالة في اهوال ومن امر العدو في اهمال واذا بفارس على هيئة النذير دخل على الوالي واخبره ان الاسبان قد اقبلت وانه عد سبعين شراعا فأمر الوالي بالتجهز . وفي الثامن عشر من شوال وهو يوم الاثنين وقع المصاف وانتصر العدو ونزل الاسبان على المدينة من جهة باب الكحل . ولما رأى سيري ان العدو قد نزل على البلد خرج الى البادية ولما كان يوم الجمعة الحادي عشر من صفر قاتلوا في البلد قتالا شديدا . ولما كان يوم الاحد اخذوا البلد واخذ الوالي وعذب اما ابن سيري فقد صعد الى الجبل وجمع ١٦ الف مقاتل وما زال يقاتل آلى ان قتل يوم الجمعة في العاشر من ربيع الآخر سنة ٦٢٨ هـ . وجده من آل جبلة بن الايهم الغساني » .

وتقول المصادر الاسبانية ان جيمس الاول ملك كاتلانيا جهز حملة من برشلونة في ٥ سبتمبر سنة ١٢٢٩ م نزلت في ميورقة على بعد ١٧ كيلومتر من العاصمة وفي ديسمبر من نفس العام احتل العاصمة وكون فيها مملكة توارثها اولاده من بعده .

هذه لمحة عن تاريخ ٤٠٠ سنة قضاها العرب في ميورقة اما اليوم فليس لنا فيها الا قصر الامارة وحمامات صغيرة وشارع ضيق .. ولله ملك السموات والارض .

لندن — فؤاد جبور حداد



حسن فتحي خليل

تولستوي .. وامرأته سونيا

بقلم حسن فتحي خليل

* * *

قليل هم الخالدون الذين نشعر بهم دائما وكأنهم ما زالوا يعيشون بيننا بالرغم من مضي تلك السنين الطويلة على مغادرتهم دنيانا ، وقلما نجد كاتبا مجيدا امكنه ان يؤثر على العالم باجمعه بكتاباته كما فعل تولستوي ، فهو ذو ملكة فنية جبارة وشخصية ممتازة .

ولد ليونيكولوفتش تولستوي عام ١٨٢٨ والملعقة الذهبية في فمه ، وتقلب في اعطاف النعيم ، وعاش عيشة الرفاهية وتمتع بمسرات الحياة جميعها ، وقضى شبابا فائرا ، انتهب فيه الملذات ، من خمر ونساء ، حتى الميسر كان له فترات حية في صدر شبابه . والتحق بالجامعة مرتين ثم زهد فيها ، وحاول ان يكون موظفا ولكنه فشل . ولما مل حياته العابثة انضم الى فرقة القوزاق وحارب معهم .. ثم عاد الى حياته المدنية وروى ظمأه حتى الثمالة من اللذات الدنيوية وتمتع بمسراتها ما شاء له التمتع .. واذا به وقد تقدمت به السن يبدأ في ذلك التحول الذي ملك عليه لبه وتفكيره .. وتشاء له فلسفته التي اعتنقها ان يبدل من حاله ، فيتنازل عن املاكه جميعها ويعيش عيشة التقشف ويعمل في الارض بيديه ويلبس لباسا خشنا كأحقر الفلاحين ويشعر بلذة كبرى وسعادة دافقة لكل ذلك .

ولو وقفنا قليلا نتدبر أسباب ذلك التحول الغريب ، وهو الرجل الذي قضى سنين طويلة من حياته غارقا في اللهو والعبث واللذات .. نجد ان تولستوي كان ذا نفسية قلقة متبرمة دائما ، ولعل من اسباب هذا القلق النفساني ذلك التنازع بين شخصيتين ، شخصية الرجل الملحد العابث اللاهي ، الباحث عن لذائذ الحياة دائما ، وشخصية الرجل الديني الاخلاقي الذي يضع نصب عينيه ان يتأمل ويبحث في معاني الحياة قبل ان يلامسها . ويبدو ان الدافع الى زهده هو خوفه من الموت بينما كان هذا الخوف ذاته سببا مباشرا في اقباله على ملذات الحياة واندفاعه في التشكك والالحاد .

والحقيقة ان تحوله هذا لم يكن مفاجأة ، فان مبادىء الدين كانت موجودة في زوايا نفسه ، غير ان كل ما في الامر ان نقطة الارتكاز بين شخصيته قد انتقلت من ناحية الى اخرى ، وكان ذلك التحول الذي لا بد منه نتيجة لظروف حياته وعمله السابقين .

لقد كان شعوره نحو الطبيعة شعورا بدائيا ، فهو يحس دائما انه جزء لا يتجزأ منها ولعل ذلك هو احد اسباب هيامه بطبقة الفلاحين ، لمعيشتهم الطبيعية الساذجة ، مما دعاه لان يحمل على المدنية الحديثة الفاسدة ، فهذه النظرة مصحوبة بعاطفته التي تسوقها نحوها تكونان ناحية من نواحي عقلية تولستوي . اما الناحية الاخرى فهي خوفه الدائم وتشككه وتحليله كل ما يعترضه مما دعاه للانفراد الذاتي الذي هو طبيعة كل من ينطوي على نفسه ، واذا هو بعد ان يشبع غريزته في التأمل يجد ان السعادة هي في المعاونة والحب والخير بين البشر وبعضهم ، ويجد ان المدنية الزائفة تحول دون ذلك فيدعو الى الاخذ بالحياة الاولى .. الحياة الطبيعية الهادئة التي تقوم دعائمها على تلك الخصال الحميدة ، ولقد اوضح نظريته هذه باسهاب في كتابه « اعترافات » عام ١٨٧٩ .

كان تولستوي حذرا في مسألة الزواج ، وكان يعتقد دائما انه شيء رهيب يخافه ويخشاه ، وكانت علاقاته الاولى مع نساء كثيرات لا تتعدى الحب ، ولو حبا عفيفا او حبا جنسيا في بعض الحالات ، كحبه لامرأة ريفية تدعى اكسينيا اثرت عليه تأثيرا عميقا دام مدة طويلة ، ولعل قصته معها هي اصل قصة « الشيطان » التي كتبها حينئذ ولقد دامت علاقته بها مدة ما ، ولكنه تخلص اخيرا من عبوديتها ، او عبودية جسده بمعنى أصح ، ووجد نفسه في اشد الحاجة الى الزواج . وجعل يفكر في زوجته المستقبلة وقد اشترط فيها شروطا خاصة ، الى ان وقع في حب سونيا بهر ، وهي الابنة الثانية لعائلة يعرفها . فكتب عنها في يومياته ، في ٢٣ اغسطس سنة ١٨٦٢ : « اني خائف ماذا لو دلت تلك التجربة على رغبة خاطفة في الحب ، وليست حبا دائما حقيقيا » . ولكنه عاد فكتب فيها يوم ٣ سبتمبر « لا أعتقد ان مستقبل حياتي مع اية زوجة يضارع ما يبدو لي الان مع سونيا .. المستقبل السعيد الهادىء الخالي من المخاوف ، او اي بادرة من



تولستوي بريشة احد الفنانين الروس

بوادر الاسف » .

وفي ١٣ سبتمبر كتب : « انا احب حبا لم احبه في حياتي من قبل .. انا مجنون .. وسأطلق الرصاص على نفسي اذا سارت الامور على ما هي عليه .. لا يمكن وقف عواطفي نحوها » وفي اليوم التالي كتب : « كل يوم يمر اعتقد فيه اني لن احتمل المزيد من شعوري بالسعادة .. سأذهب في الغد اليهم وسأصرح لهم بكل شيء والا فاني انتحر » .

ومع ذلك لم يتقدم اليهم الا بعد ثلاثة ايام ، فطلب يد ابنتهم ، فقبلوه زوجا لها في الحال . وطلب منهم زفافا سريعـــا .

لم ينم في الليلة التي سبقت عقد قرانه، فقد كان مثقلا بالشكوك والمخاوف والريب .. كان يشعر برغبة فيالفرار هاربا ، وكان الزواج قد حددت له الساعة الثانية مساء ، وكان من غير اللائق ان يطرق الخطيب منزل خطيبته يوم عقد قرانهما ، الا انه ضرب بالتقاليد عرض الحائط وذهب اليها وجعل يسألها : اتشعر انها تحبه حقا ، ام هل من الاوفق ان ينفصلا قبل فوات الوقت .. وبكت سونيا وهي تؤكد له حبها وانه ما من شيء يستدعي قلقه هذا . وشعر بحماقة فعلته هذه ، فقرر الزواج منها . ولم يهرب بعد الزواج كما كان يتوهم ، فقد كتب في يومياته بعد ثلاثة شهور من زواجهمـــا : « لا اعتقد ان احدا يشعر بمثل سعادتنا » .

وجرفته عواطفه حتى اصبح يؤدي كل اموره في سرعة وبدون تفكير او ترو كسابق عهده ، وهدأت فورة شهور الزواج الاولى ، فتكشف له الوهم ، وابتدأ يأخذ الغضب مكانه في مجرى حياتهما ، لم يظهر منه أي اعتراف بفشل ذلك الزواج الا بعد ستة عشر عاما او ثمانية عشر ، وما من احد خلال هذه الاعوام الطويلة شك في توفيقه في زواجه . ولكن الحقيقة ان تولستوي بعد ستة اشهر من زواجه لا اكثر ، قد كشف الهوة الروحية التي تفرق بينه وبين زوجته ، فكتب الى شقيقتها الصغرى ذلك الخطاب الرمزي الذي جاء فيه :

« لقد حدث شيء عجيب يا عزيزتي ثانيا .... انت تعرفين ان شقيقتك آدمية من لحم ودم مثلنا ، وتعلمين انها تتنفس انفاسا كأنفاس الناس حادة ، وتحرك اطرافها في كل الجهات كما يحرك الناس ، وبالاختصار هي من مادة البشر ... ولكن انظري ماذا حدث :

فجأة في ٢١ مارس سنة ١٨٦٣ في الساعة العاشرة مساء ، حدث ذلك الحدث الفادح الذي ازعجنا معا ... فانيا !... انا اعرف انك احببتها دائما ، ولا ادري ما هو الشعور الذي سيبعثه هذا الحادث في كيانك الان .

لقد استيقظت مبكرا في ذلك اليوم ، وقمت بنزهتي المعتادة ، وتناولنا معا طعام الغداء ، ثم العشاء . وكـانت هي تقرأ (كانت ما زالت تقوى على القراءة) وكنت اشعر

بالهدوء والسعادة .. وفي الساعة العاشرة مساء قمت الى فراشي ، واخبرتني سونيا انها ستتبعني الى الفراش .. واثناء نومي سمعتها تفتح الباب ، وطرقت اذني زفراتها، وكانت تخلع ملابسها . ثم احسست بها تتقدم الى الفراش ففتحت عيني و .. رأيت ! ! لم تكن سونيا التي نعرفها جميعا هي التي رايتها ... بل سونيا اخرى مصنوعة من الخزف !! وانك تعرفين الدمى الخزفية ذات الاذرع العارية ، تلك الدمى تشبه الاجسام البشرية تماما ، فها هو الشعر المطلي بالسواد يعلو راسها ، وها هما العينان الواسعتان بحدقتيهما المرسومتين ، وها هي ثنايا القميص على الجسد العاري تبدو كالطبيعة تماما .. هكذا كانت سونيا . فلمست ذراعها ولكني وجدتها ناعمة باردة ، وخيل الي اني ما زلت نائما ، فتيقظت ... ولكنها كانت ما زالت واقفة امامي جامدة لا تتحرك . فسألتها : « هل انت مصنوعة من الخزف ؟؟» واذا بها تجيبني دون ان تفتح فمها ذا الشفتين المدهونتين باللون الاحمر : « نعم .. انا من الخزف !! فشعرت برعشة تسري في جسدي ... ونظرت الى ساقيها فوجدتهما من نفس المادة ، وكانتا مستندتين الى حامل خزفي ايضاً .. وعليك يا عزيزتي ان تتصوري ما اعتراني من الرهبة والخوف . حينئذ لم اصدق شعوري وبدأت اناديها . ثم تحسستها ثانية ، فكانت ناعمة الملمس باردة ، كانت جامدة ذات مظهر خارجي فحسب ، كانت اجزاء وجهها وجسدها هي هي التي اعرفها جيدا ، حتى قميصها ، فقد دققت النظر فيه فاذا به نفس القميص الذي كانت تلبسه من قبل . ولكنها كانت تمثالا من الخزف !!

ووجدتني في حالة مؤلمة لا ادري ماذا افعل او اقول . ولعلها كانت ترجو أن تعينني على ما انا فيه .. ولكن كيف تقوى على المساعدة مثل هذه المخلوقة الخزفية ؟ ! كانت لا تنظر الي .. كانت تنظر الى الفراش ، وفقدت سلطاني على نفسي فامسكت بها فلم اشعر باي تأثير لاصابعي في جسدها الخزفي البارد . ومما زاد في عجبي انها اصبحت خفيفة كوعاء فارغ ، ثم اذا بها فجأة تنكمش ويصغر حجمها حتى اصبحت في حجم ابهام يدي .. فوضعتها على الفراش ، واذا بي اسمعها تقول : « لماذا اصبحت من هذه المادة ؟ » فلم ادر كيف اجيبها !.. واذا بها تقول ثانية : « هل تشعر بفارق بيني اولا وبيني الان؟» فلم ارض ان ابعث الالم الى نفسها فقلت : « ان هذا شيء لا اهمية له بالنسبة الي .

ونمنا تلك الليلة . وفي الصباح تركت الحجرة دون ان انظر اليها . ولما عدت في الظهيرة وجدتها كما كانت اولا ودائما ، من مادة البشر ، فلم ارغب في ان اخبرها بما حدث بالامس حتى لا تتألم .. انها مخلوقة آدمية امام الناس دائما ، ولكن حين تنفرد في حجرتها أعود فاراها على هيئة ذلك التمثال الخزفي الصغير » .

ويبدو لنا من هذا الخطاب بعد الشقة بين روحيهما ، ويظهر الشعور الذي احس به تولستوي ازاء زوجه .

ونجد رايه في الزواج في رواية «الحرب والسلم» وهي اولى رواياته التي كتبها بعد زواجه . فقال على لسان الامير اندرو وهو يخاطب بيير « لا تتزوج ابدا يا صديقي العزيز ، هذه هي نصيحتي لك ، لا تتزوج الى ان تقنع نفسك بانك قد قمت بكل ما تقوى عليه ، وحتى تكون قد هدات ثورة حبك للمراة التي اخترتها ، فيمكنك رؤيتها على حقيقتها . انك ترتكب بغير هذا خطأ شنيعا .. تزوج حين تتقدم بك السن وتشعر انك لا تصلح لاي شيء سوى الزواج ، والا فقدت كل ما هو عظيم ونبيل في شخصك .. نعم .. نعم .. لا تنظر الي في دهشة .. فاذا تزوجت ، وكنت ترجو لنفسك ان تكون ذا خطر في المستقبل ، فانك ستخيب ، وستشعر في كل خطوة ان كل شيء بالنسبة اليك قد انتهى .. وان الابواب كلها قد اغلقت في وجهك .. الا باب حجرة الجلوس حيث تجتمع بامراة غبية جاهلة ! » .

وقبل نهاية الرواية المذكورة يحدثنا تولستوي عن بيير الذي تقمص شخصيته كما تقمص شخصية الامير اندرو فيقول : « واصبح بيير رهن اشارة زوجته ، فمنذ ايام زواجهما الاول اعلنت ناتاشا رغباتها واصدرت اوامرها . وتولت بيير الدهشة من نظرته الجديدة التي احسها نحو زوجته ، واحس ان كل لحظة من لحظات حياته اصبحت ملكا لها وللعائلة » .

وكتب تولستوي بعد ثلاثين سنة من ذلك ، في مايو سنة ١٨٩٣ يقول : « اني اذكر ماذا فعل ذلك الزواج بي . انه شيء فظيع ! » .

وهكذا تطورت افكار تولستوي عن الزواج بعد هذه التجربة القاسية ، واذا به في قصة انشودة كروتزر يعلن رايه ونظريته التي اصبح يؤمن بها والتي تقول : «ان الحياة الزوجية تتسمم اذا ما قامت على علاقات متبادلة اساسها الرغبة الجنسية فقط ... ان الاستسلام الى هذه الرغبة نتيجة الدمار دائما » .

ولما بلغ الثانية والثمانين من عمره آثر الهرب من بيته وزوجه ليقضي بقية ايامه في عزلة ولكن لحقته المنية بعد ايام من هربه في السابع من نوفمبر عام ١٩١٠ .

وهكذا بدأ حياته مترفا واختتمها متقشفا ، وقضى فترة منها مرتابا متشككا واخرى متصوفا ... ومات تولستوي ذلك الارستقراطي المغرور في بداية حياته ، والفلاح المتواضع في نهايتها . كما يموت غيره .. ولكنا نحس دائما انه يعيش خالدا بيننا بكتاباته التي لا تبلى جدتها ابدا .

حسن فتحي خليل — **الاسكندرية**

ماذا نقرأ؟ هل نقرأ يوسف السباعي

بقلم لطيفة الشهابي

* * *

السؤال الذي يصادفنا ، نحن مدرسي ومدرسات اللغة العربية باستمرار هو : ماذا نقرأ ، وهل نقرأ لفلان ، وهل نقرأ لفلان ..؟ وانا شخصيا لا أمنع طالبة من قراءة شيء لانني اعتقد ان الطالبة هي التي تكون نفسها وتوجه قراءتها، وليست القراءة وحدها هي التي تخلق الطالبة . وبتعبير اصح انني أظن ان تماذجا عجيبا يحصل بين المقروء والقارىء فينتج شخصية الاخير وأسلوبه ، ولذلك اجعل دوري دوما مقتصرا على النصح والارشاد لا على القسر والالزام . وحين يوجه الي مثل هذا السؤال ابادر الى سرد اسماء عدد من المؤلفات لكبار كتابنا تصلح كلها لقراءة هذا الجيل. ولكن ما اسرع ما يبتدرني بعض الطالبات بالسؤال : هل القصة الفلانية ليوسف السباعي حسنة ؟ وهل القصة الفلانية لاحسان عبد القدوس حسنة ؟ فأقف قليلا قبل ان اجيب ، ثم اقول صادقة : انني لم اقرا لهما قصة واحدة – مع الاعتذار من الاستاذين القصاصين – فيعتقد السامع انني اماري في قولي ، وان غايتي ابعاد التسائل عن هذين الكاتبين لاسباب يتفننون في تعليلها حسب خبراتهم في كتابة هؤلاء القصصيين . وقد جاءتني احدى الطالبات مرة ومعها قصة « ناديا » ليوسف السباعي بجزأيها ، بعد ان قلت لها اني لا اعرفها ، سلمتها لي وقالت انها قراتها فوجدتها جميلة ، وقد لا تعجبني انا . وطبعا مفهوم الجمال الادبي عند الطالبات لا يكاد يختلف في شيء عن مفهومات الجمال الاخرى عند البدائيين ، اي انهم يحسون بذلك احساسا غامضاً لا يستطيعون شرحه ولا تعليله ، ولا يرون فيه الا الاشياء المادية او المثيرة . وقرات القصة بصفحاتها الالف ، وكدت أحس بمقدار فهم الفتاة لها . وخلاصتها لمن لم يقراها هي التالية :

يرتكز كيان هذه القصة على حياة فتاتين توأمتين سميت باسم واحدة منهما وهي « ناديا » رغم ان كلتيهما كانتا تسيران بخطى متماثلة الا قبل النهاية بفترة وجيزة حيث تموت « منى » ولا يبقى لدينا الا « ناديا » . ان التوامتين ولدتا من اب مصري مثقف وام فرنسية ، وقبل ان تتجاوزا سن المراهقة عزل ابوهما من استاذية الجامعة مع من طهرت منهم الاجهزة بعد قيام الثورة ، رغم براءته من كل ما لصق به من تهم كان سببها الوشاة والحساد . وقد اثر ذلك في نفسه ودفعه الى محاولة السفر الى فرنسا للعمل فيها ، ولكن حال بينه وبين ذلك حادث حريق حل في بيته واصاب « ناديا » واثرت به المفاجأة من جديد فعادت له نوبة الذبحة الصدرية ، التي اصابته عقب خروجه من الجامعة ، وكانت في هذه المرة قوية قضت على حياته . ثم قست الحياة على العائلة ودفعت بالام الى ان تفكر مجددا بالسفر الى فرنسا لتتخلص من الجو المشحون ، وتم سفر الام وابنتيها ، وحصلت الفتاتان على عمل في مدرسة اهلية في « جاب » بفرنسا ، وسكن الجميع في بيت الجدة القديم . ولكن كل واحدة من الاختين خلفت وراءها في مصر حبيبا يعز عليها فراقه وان اختلفت علاقتها معه باختلاف طبيعتها الخاصة . ف « منى » المرحة المحبة للعب والدردشة تركت في القاهرة « عصاما » الذي طالما لعبت معه وسبحت ومرحت وصارحته بحبها وصارحها برغبته الصادقة في الزواج منها بعد اتمام استعداده للحياة العائلية ، وكانت الاتصالات بينها وبينه دائمة . و« ناديا » خلفت وهما كبيرا في خيالها يمثله الدكتور الجراح «مدحت» الذي احبته برزانته وصلابته وهدوئه وخشونته وملامحه القاسية رغم انها لم تحدثه قط ولم يعرف هو شيئا عن حبها له حينما كانت في مصر . وقد بذلت اختها شتى المحاولات لتجعلها تحتك به او تتعرف عليه، ولكن طبيعتها الانطوائية لم تسعفها بشيء . بل ازداد انطواؤها وبأسها بعد ان اصيبت بندوب في رقبتها اثر ذلك الحريق الذي شب في بيتهم بالقاهرة ، وقد جعلتها هذه الندوب تواصل تلفيع رأسها (بالاشارب) وتخفي به كل اجزاء رقبتها ، وتعتقد انها لا يمكن ان تري رقبتها لاحد ، ولا لمن تحلم به ليلها ونهارها. ولكنها تتجرأ مرة وتراسل صاحبها باسلوبها الجاف ، في اول الامر ، والمنسجم مع طبيعتها ، ويتلقى الرسالة فيظنها من مجهول او ماجن عابث ثم يستشف شيئا من الصدق والاستعطاف فيها فيجيب عليها باشد من جفافها متسائلا عمن تكون صاحبتها وماذا تريد ؟ ومنذ ذلك تستمر المراسلات بين الحبيبين عن بعد ، مع ان فكرة اللقاء كانت تخيف « ناديا » وتطير لبها . ولكن قوة العلاقة بينهما تبلغ شكلا يجعل « مدحت » يفكر بالسفر جديا الى « جاب » ، وتراوده الفكرة باستمرار بعد ان تبادل الصور مع صاحبته ، وكانت في اول الامر ترسل له صورها القديمة قبل ان تبلغ سن الشباب ثم عاتبها على فعلتها فحارت كيف تعالج القضية : انها لا تريد ان تتصور بالايشارب ، ولا ان تنزعه خشية ظهور اثر الحريق ، ثم تهتدي الى حل فترسل صورة اختها التوام التي تشبهها كثيرا . وعندما تصله الصور والرسائل الاخيرة يقوى عزمه على السفر ، ويقرره في فترة معينة ، تصادف قبيل العدوان الثلاثي على مصر . وحين يصل الى «جاب» ويدق باب البيت الذي وصفته له « ناديا » في رسائلها ووصفت كل ما حوله ، تخرج « ناديا » لتستقبله بعد ان فجعت باختها وآلمها المصاب كثيرا ، ويسألها « مدحت » عن ناديا فتجيبه بانها ماتت وهي تعني (صاحبة الصور الاخيرة) ويصاب الرجل بصدمة مجزعة ولا يعرف ماذا يفعل ، ثم

يذهب معها لزيارة قبر « منى » أو « ناديا » كما يظنها هو، ثم يطوف البلدة مع الفتاة ذات (الايشارب) حزينين صامتين ، دون ان يدرك انها هي المقصودة بالزيارة، ويعرج بعد ذلك عائدا الى مصر . وهنا يبلغ اليأس ذروته عند «ناديا» وتفكر بالانتحار بعد ان فقدت كل امل لها بالمراسلة او الزيارة ، اذ اصبحت « ناديا » ميتة في عرف «مدحت»، ولكنها تستجمع شجاعتها وتكتب لصاحبها رسالة مطولة تشرح له فيها كل شيء وتنبئه عن رغبتها في الانتحار بعد اليأس الذي حل بها . وحين يقرأ الرسالة تستولي على ذهنه فكرة واحدة وهي انقاذها من الانتحار بأقرب وسيلة ويمتطي اول طائرة الى جنيف ، ومن هناك يحتال في الدخول الى فرنسا حيث يكون العدوان الثلاثي على اشده، ويكون المصريون ممنوعين من عبور حدود فرنسا ، ولكنه يدخل خفية بواسطة حيلة ويصل الى « جاب » فيجد « ناديا » لم تنفذ مخططها الجنوني بعد ، ويعود بها الى القاهرة ، فترى خطيب اختها في المستشفى اثر اصابته في المعركة ، وليس له علم بموت اختها ، وتجد محبها السابق الذي لم تكن تبادله الحب ، ولم يكن يعرف كيف يعبر لها عن حبه ، ثم تودعه قبل ذهابه الى بور سعيد حيث استشهد هناك . ثم تواصل حياتها مع زوجها « مدحت » بعد ان تقوم والدته باعداد لوازم الزفاف .

***

هذا هو الهيكل الاساسي للقصة . وهناك الى جانبه روح وطنية توشيها وتشغل قسطا ليس بالقليل من حوارها واحاديثها ، خاصة وان حوادثها تدور زمنيا ما بين ايام الجلاء وتأميم القناة والعدوان الثلاثي . وهذه الناحية هي التي تصور للكثيرين ، فيما اظن ، صلاحية هذه القصة للقراءة ، حيث أن مؤلفها لم يهمل وطنه ، ولم يكن أبطال قصته منحلين اخلاقيا . ولكن اظن كذلك اننا نقرأ من اجل انفسنا ومن اجل وطننا ، ومن اجل أسلوبنا قبل كل شيء، واخص الطلاب والطالبات هنا دون غيرهم .

١ ـ لا شك في ان قارىء « ناديا » يحس بانها امتعته اشد الامتاع نفسيا بما فيها من مرح ونكات وتسلية وخفة روح تصور حياة اخواننا المصريين ادق تصوير ، وتعطينا صورة للانسان الهادىء بينهم كيف يعيش ، واعني بذلك « مدحت » وكيف كان محورا لاجمل أنواع الفكاهة ، فلقد كانت تنسج الفكاهة في حضوره من قبل زميله وصديقه « جاد الله » وفي غيابه من قبل أخت صاحبته « منى » . ثم هي من جهة اخرى تنقلنا الى طبيعة جبال الالب الفرنسية وما فيها من خضرة وثلوج ومياه واشجار ، وتحكي لنا التعاطف الانساني بين البشر مهما كانت انواعهم واجناسهم واديانهم خصوصا حين وفاة « منى » . هذا الى جانب بعض المواقف الشديدة التأثير والتي لا يملك القارىء فيها حبس دموعه كما في وصف وفاة «فاضل» الاب ثم موقف العمة الشرس من بنات اخيها وكذلك وصف وفاة « منى » وقدوم « مدحت » وتوهمه ان المتوفاة هي « ناديا » .

٢ ـ أما من جهة وطننا فانها تصور لنا اصدق العواطف نحو الوطن وتعطينا صورة مثالية لاسرة تفجع باكبر فرد فيها سنا ومنزلة ، بعد كارثة اصابته في وظيفته ، وفي فترة من فترات الحكم ، ثم هي تبقى موالية لهذا الحكم مئة بالمئة لانها تحس انه يخدم الوطن ويسعى لمصالحه . وان هذه المثالية سيأتي دور مناقشتها في ختام هذه الكلمة .

٣ ـ اما من الناحية الاسلوبية فلا اظن احدا يخالفني في اننا لن نستفيد شيئا من القوة في اساليبنا بقراءة امثال هذه القصة ، اذا لم يكن العكس . قد يستفيد القارىء منها فنيا اذا امتلك ناصية الاسلوب فيقرأها ويعرف محاسنها ومآخذها من حيث هي قطعة فنية ادبية، اما من جهة الاسلوب فلا . ذلك ان المؤلف يكثر جدا من استعمال العامية ولذا فاني اعتقد ان اجيالنا الصغيرة تحب كثيرا هذا النوع من القصص وتميل الى مجاراته في العامية ظنا منها انها تقلد كتابا وتكتب لغة فصحى ، ويكاد يكون هذا الامر سببا من اسباب انحطاط الاساليب في مدارسنا.

ان هذه القصة مع ما فيها من عواطف ذاتية ومشاعر وطنية صادقة ، ومع ما فيها من مواقف انسانية ، ورغم بعدها عن الافاضة في تصوير العناصر الشريرة في الحياة، هذه العناصر التي لا يكاد يخلو منها مكان ولا زمان ، اقول مع ذلك ورغم ذلك فانها لم تخل من بعض المتناقضات التي تعلو على الواقع وتجعلنا نحس ببعده عنا . ونلاحظ ذلك في نقاط :

١ ـ اولى هذه النقاط هو ولاء الفتاتين لحكومة الثورة رغم ان اباهما قد ابعد في عصرها عن الجامعة واصابه مرض نتيجة لذلك اودى بحياته . انني لا اكاد اصدق ان مثل هذه الاسرة يمكن ان تكون بمثل هذه الوطنية التي صورها بها الكاتب خاصة وان الام فرنسية الاصل . قد يقال بان وطنيتهما ناشئة عن وطنية الشابين اللذين تبادلتا معهما الحب . ولكنني ارى ان مشاعر « ناديا » الوطنية كانت تفوق مشاعر اختها رغم انها لم تعرف شيئا عن اتجاه « مدحت » الوطني لعدم اتصالها به في اول الامر .

٢ ـ النقطة الثانية وتتعلق بما حدث لـ « منى » من مرض مفاجىء اودى بحياتها رغم اننا لم نصادف مثل هذه الازمة الصحية او ما يقاربها لدى الفتاة خلال احداث القصة مع ملاحظة ما قامت به من ألعاب كثيرة مجهدة . فهل يمكن ان نعزي ذلك الى شعورها الحزين الداخلي من اجل اختها التي لا تجرؤ على مقابلة خطيبها ؟! ان شيئا من ذلك لم يتضح خلال القصة . قد يقال بان الكاتب كان يلمح كثيرا الى خشية الام عليها بعد المرض الذي أشار اليه في اوائل قصته ، وكان يشير الى تحذير « ناديا » لها من ارهاق نفسها ، وهذا صحيح الا ان الاحداث التي عبرت جعلتنا نعتقد ان « منى » قد اصبحت أقوى من اختها . ثم بعد

الى سعدي الشيرازي

افتحي النافذة يا شيراز شمسك لا تغيب
وافرشي دربك وردا ، واقاحا وابتسامات العذارى
ولياليك تذكرنا ، والاف الحكايات الطويله .
عيد « سعدي » مولد الحب واصداء السنين.
واغاني ومواويل عزفناها قرب نبع من قصائد.
فالاساطير اغاني ، الف « بروين » تغنت
يا صدى الماضي القريب .
يا بيوتا حملتنا ما نطيق
كلما مرت حكايات الصفار
طفلتي « شهناز » احلى الاغنيات .
يا عذابات الكبار .
يا سموما قطروها في اواني من بنفسج
يا صديدا ، عصروه ، في حبيبات عيوني
رحت اصرخ .
يا عذابات السنين

* * *

دفئيني ، يا كلستان الحبيبه
في شرائط من حرير
ضمدي جرحي العتيق
يا صدى « بروين » يا حرفا توهج من سنين
يا زهورا قطفوها ... ورموزا رسموها
في دروب مقمره ،
والليالي مزهره

* * *

عدت يا « بروين » احمل في متاهات حياتي
يا عذاباتي المقفره .
افتحي النافذة يا شيراز وغني رباعيات قديمه
وازرعيني اقحوانه .
واحصديني ياسمينه
ليتني اعزف في دربك يا «بروين» قيثارة حبي
ليتني مت على دربك يا شيراز بلا كفن
لان ربيعنا بلا همس بلا نجوى
خريفنا عاد بلا ضحكه ، بلا غنوه

شيراز   عبد الكريم احمد الحمود

ذلك فوجئنا بذلك النزيف الصدري المخيف الذي كان سببا لموتها .

٣ ـ النقطة الثالثة اننا نلاحظ شبه عجز من الكاتب عن تصوير الصراع النفسي الذي مازج عواطف « ناديا » يوم ذهبت تطوف في « جاب » مع « مدحت » . فلقد كان هذا الاخير في غمرة الحزن ، ولم تكن الفتاة تدري هل هو حزين على صاحبة الصور ام على صاحبة الرسائل ! فامتزجت في نفسها عواطف الحزن والغيرة والفرح ، انها تحس بالحزن الشديد على اختها وتشعر بالغيرة اذا ما راودتها قضية الصور ويداخلها الفرح حين ترى «مدحت» الى جانبها وذلك ما لم تكن تحلم بتحقيقه . ان الكاتب لم يستطع ان يبرز لنا هذه الاحساسات واضحة في ذلك الموقف بل اشار اليها اشارات عابرة فيما بعد . واذا كان المؤلف قد أظهر لنا عنصر الغيرة عند ناديا من اختها المتوفاة بأشكال مختلفة فانني لا اقره على هذه التسمية . فلم تكن ناديا لتغار من شقيقتها ولكن ربما كان ذلك نوعا من الحزن والندم على تصرفها الخاطىء حين غامرت بارسال صور « منى » الى « مدحت » على انها صور لها هي .

***

اظنني الان بعد أن أشرت الى المواقف التي تعترضنا حين تسألنا طالباتنا ماذا نقرأ ؟ وبعد ان تناولت بشيء من التفصيل قصة « ناديا » وملاحظاتي المتنوعة حولها ، من حيث هي نموذج من قصص يوسف السباعي ، وشرحت بعض الدوافع التي تجعلنا نقرأ وننصح بالقراءة ، اظنني بعد ذلك كله محقة في ترددي حين تقول لي طالبة : هل اقرأ ليوسف السباعي او لاحسان عبد القدوس ؟ فنحن غايتنا قبل كل شيء ان نعلم العربية ، وان نجعلها اداة طيعة للفهم والتعبير والتذوق ، فاذا كنا ننصح انسانا بان يقرأ ليقوي اسلوبه فليس من المنطق في شيء ان نرشده الى امثال هذه القصص . واذا كان من هواة المتعة والتسلية فقط فليقرأ ما يشاء دون ان يسترشد بآرائنا نحن . وان كانت له غاية فنية من قراءة القصص كأن يأخذها نماذج يستشهد بها في الموضوعات المتعلقة بالقصة الفنية فان لي معه رأيين : الاول يتعلق بالقارىء الذي هو في طور التكوين الاسلوبي ولا انصحه بالقراءة الا لمن صحت اساليبهم وسلمت لغتهم وتعبيراتهم في قصصهم . والرأي الثاني يتصل بمن يعتقد انه امن العثار في كتابته ، ولا اظن هذا الفريق بحاجة الى نصح امثالي ، فهو يستطيع ان يقرأ ما يشاء لانني لا اعتقد ان اسلوبه قد استقام الا بعد ان قرأ قدرا مناسبا من الكتب القيمة والقصص الصحيحة الاسلوب .

والرأي الاخير عندي هو ان نقرأ اي شيء ولاي كاتب وفي اي وقت . ويكفي ان نعتاد على القراءة ونهوى المطالعة حتى نستطيع الفهم والتعبير والتذوق . وليست عمليات الانتقاء هذه الا بسبب كثرة الانتاج الفكري الذي يملأ المكتبات بانواعه المختلفة ، وبسبب هذا العصر الذي يسمى عصر السرعة والذي جعلنا نحس بضيق الوقت في كل لحظة .

دير الزور ـ سورية   لطفية الشهابي

ظلال الالهة

بقلم آرثر ملر

ترجمة يوسف عبد المسيح ثروة

* * *

كتب تولستوي كتابا سماه « ما هو الفن ؟ » ومؤدى مضمونه يكاد يذهب الى ان معظم القصص والمسرحيات والرسوم ليست من الفن في شيء بل هـي الغرور بعينه وان الايقاع الذي ينبعث من منجل الفلاح الروسي وهو يتأرجح لهو اكثر فنية مـن كل الرقصات المؤداة علـى المسارح المسكوفية . وكذلك رسوم الفلاحين على جوانب عرباتهم فهي ابلغ اصالة من جميع الرسوم في المتاحف . اعتقد ان الشيء الذي ثبط عزيمته اكثر من اي شيء آخر هوحتمية انتهاء الابداع الفني وصيرورته حرفة من الحرف ، فبعد أن كان الفنان طبيعيا بالبداهة أصبح ، وفي اسرع ما يمكن من الزمن ، داعيا ذاتيا ، ومن هنا فقد استغل مواهبه بغية الربح او المقام الاجتماعي او لمجرد عدم الحصول على عمل تزيه .

ومع ذلك استمر تولستوي في الكتابة . الحق ، على ما اظن ، اننا عاجلا او آجلا مضطرون الى معرفة ما نحن فاعلون ، ولعلنا نقبل بمصيرنا ذلك بصفته حقيقة واقعة عندما يحين اوانه . لكن التعرف الذاتي على الاحتراف لا يتطور الا باعادة الموضوعات الرئيسة انفسها في مسرحيات مختلفة . اما بالقياس الى المسرح نفسه فالتقييم الذاتي لا يتأتى الا بالطريق ذاتها . نحن ، على ما احسب ، في نهاية مرحلة . لقد اعيدت بعض الاشياء مرارا وتكرارا بحيث يستطيع المرء ان يتكلم على التقصيرات التي ينبغـي الاعتراف بها ، كيلا يصبح مسرحنا مسرحا سخيفا منحطا يجتر ما لا بد من هضمه .

لا يستطيع احدنا ان يتكلم على التقصيرات من غير ان يتساءل عن المستويات الفنية . فقد يبدو تحديد مابالقياس الى بعضهم كأنه ارض واسعة سعة العالم وهو على الضد من ذلك بالقياس على بعضهم الآخر .

(ثم يتطرق الكاتب الى حياته في مشيغن بعد الحرب العالمية الاولى وما اعقبها من التدهور الاقتصادي الهـائل المعروف وتأثير ذلك في مستقبله الادبي وعنف هذا التأثير في آماده واعماقه ويستمر متحدثا عن تلك الفترة . «المترجم») ثم يستطرد قائلا : لم اقرأ الكثير من الكتب في تلك الايام فقد كان التدهور الاقتصادي كتابي . وبعد ذلك بسنين تمكنت ان انسج في حبكة واحدة ما كان لدي من مشاعر واحاسيس وانطباعات عن تلك الايام . ومن هنا احس الناس بان كل شيء اصبح جامدا . فلا بد من وجود جراد غير منظور يأكل المال قبل تمكنك من الامساك به . كان عليك ان تكون من اصحاب درجة الدكتوراه لكي تحصل على عمل . اما المحامون فكانوا يبيعون الاربطة . فكل امرىء كان يحاول ان يبيع شيئا ما الى غيره من الناس . وقد أرسل مدير احدى البورصات الى السجن لتصرفه الشائن في صكوك الاعتمادات ... والحق ان كل ما حدث في ذلك العهد حتى سنة ١٩٢٩ لم يكن الا زيفا في زيف ... ان ما اعطانيه ذلك العهد ، على ما اتصور الان ، لم يكن سـوى شعور بعالم غير منظور . لقد كانت الحقيقة تتراكم سرا في طريقها الى الذروة على حساب قوانين خفية لتحطم الاوهام في الوقت المناسب . وبهذا المعنى كانت سنة ١٩٢٩ سنتنا الاغريقية . ان الالهة تكلمت ، الالهة اللواتي تسببت فـي تسييب حكمتها او في تحريفها : مدنية كان لها ان تستمر قدما والى اعلى استنادا الى المضاربة والمقامرة والرشوة واكل الطلاب بعضها بعضا ، حسبت «المجتمع» قبل الانهيار (الاقتصادي) الناس الاغنياء المكتوبة اسماؤهم في (السجل الاجتماعي) . اما بعد الانهيار فالمجتمع اخذ يعنى زيارات اناس غرباء يدقون بابك لعلهم يجدون فرصة لغسل النوافذ وقد اغمي على بعضهم بسبب من الجوع وهم على مشارف الابواب ...

اخذت اقرأ الكتب بعد بلوغي السابعة عشرة من العمر ، لكني لم اكن لاصطبر على كل لون من الوان الادب . وحتى في ذلك الوقت لم اكن لاعتقد في استطاعة الانسان ان يتحدث عن العالم الذي يعيش فيه ، وكيف يحصل علـى معيشته وما هو ليس في بيته وفراشه بل فـي مجالات عمله . اتذكر الآن قراءتي لبعض القصص وتعجبي منها . كيف يحصل هؤلاء الناس على معيشتهم ؟ متى يعملون ؟ اذكر اني سألت هذه الاسئلة نفسها عن المسرحيات القليلة التي رأيتها . فقوانين القدر الخفية لم تحم فقط في سلوك الناس بل وفي صورة اشد في العالم الذي يقع خلف بيت الاسرة . حيث هناك الالهة الكبار الذين يستطيعون بسخطهم ان يحيل رجلا محترما ناجحا فخورا الى انسان اشبه شيء بهيكل خائف مهما ظن في نفسه ومهما قرر او لم يقرر .

وعلى ذلك فان قوة الظروف هي التي جعلتني مسحورا بهذه العملية العارية من باكورة حياتي وبغير وعي مني كيف يمكن للعالم ان يغير شخصية الانسان ، والسؤال الاصعب ، كيف يمكن لهذا الانسان بدوره ان يغير العالم، عالمه هو ؟ لم يكن هذا السؤال اكاديميا او ادبيا او دراميا لاول وهلة . انما كان مشكلة عملية تتعلق بالشيء الذي تؤمن به للسير في الحياة . فمثلا اينبغي للمرء ان يعجب بالنجاح ـ فقد كان هناك اناس ناجحون حتى في ذلك العهد. ام ينبغي للمرء ان يرى في النجاح وهما يتبدد وينتهي الامر بصاحبه الى المهانة والتحطيم . واذن أكان النجاح

امرا لا اخلاقيا ؟ ــ اذا كان كل شخص في حارتنا لا يملك سيارة (بويك) حسب بل لا يملك فطورا فما الذي نعتقد فيه ؟

حين كنت في المدرسة الثانوية وانا اتخبط في الجهل، وقع في يدي كتاب « الاخوة كارامازوف » والله يعلم كيف جرى ذلك . كان ذلك ذات يوم ممطر منعني من لعب الكرة فبدأت في قراءة الكتاب ظانا انه قصة بوليسية . كنت دائما ابارك دوستويفسكي لكتابته باسلوب يستطيع اي احمق فهمه . طبعا ، ليس للكتاب اي علاقة بالانهيار الاقتصادي ، ومع ذلك ، وعلى الرغم من الاسماء الروسية فقد اشتد ميلي اليه ، وزاد تعلقي به ، اكثر من الصحف التي كنت اقرؤها يوميا. ويومئذ، لم افكر قط في التساؤل عن ماهية السبب . اعتقد الان ان السبب كان الصراع بين الاب والابن فضلا عن شيء اكثر من ذلك واعني به ذلك التغلغل الذي يتجاوز المشاهد الخاصة والشخوص بغية الوصول الى القوانين الخفية ، الى حيث توجد الالهة التي تجتر وتقرر ، الى المكان الذي فيه صخرة يستطيع الانسان ان يقف عليها من غير اوهام ، فيصبح بذلك انسانا حرا . ومع ذلك تبدو الشخوص متحررة من السببية النظامية .

والشوق الذي شعرت به ذلك اليوم نحو نوع من الاتصال بالمنطق الخفي هو الشوق نفسه الذي كان في الكتاب . صحيح انه لم يقدم لي اجوبة لكنه بيّن لي اني لم اكن الوحيد المفعم بمثل هذا الضرب من التساؤل ، فانا لم اعتقد ولم استطع ان اعتقد بعد ١٩٢٩ في الواقع الذي رأيته بعيني . لقد كان هناك عالم غير منظور ، مليء بالاسرار والمفارقات لا يلين في طريقه يتقاذفه السبب والنتيجة حدثني الكتاب فقال : « في العالم نظام خفي . أننا نعيش بسبب واحد هو اكتشاف طبيعة هذا النظام . ان الاخيار هم الذين يفعلون ذلك . واما الاشرار فيقولون : لا شيء وراء وجه العالم ، تحت سطح الواقع . لن يجد الانسان السلام الا حين يتعلم كيف يعيش بصورة انسانية ، في وفاق مع تلك القوانين التي تقرر طبيعته الانسانية . » .

... ثم قرات ابسن في الكلية وبعدئذ سمعت باني كنت اقرأ مسرحيات تتناول المشاكل . لم اكن اعرف ما كان يعني ذلك، فاخبرت انها تدور حول المشاكل الاجتماعية كلامساواة النساء . والنساء اللواتي تعرفت عليهن لم يكن باي حال اقل من مستوى الرجال ، لم اجد شيئا من هذا الضرب من المشاكل في (بيت الدمية) . انني لم اتصل بابسن لانه كتب عن المشاكل ، بل لانه كان بذاته عملية وضاءة، لا شيء في مسرحياته يقوم بنفسه ولا سطر واحد، حتى ولا يمكن عزل ملمح من الملامح ، فهي جميعا لا تدعك تأخذ انفاسك بيسر .

ومن مؤلفاته التي قراتها الحين بعد الحين بين الاعاجيب الجديدة كما هي الحال لدى دوستويفسكي وصلت الى فكرة ما ينبغي أن يكون عليه الكاتب من وضع . هذان الكاتبان هما اللذان أصدرا الاجازة، اذا صح الكلام، الاجازة الشرعية الوحيدة التي افهمها للتجاسر على الكتابة . ان المرء يحق له ان يكتب بسبب من حاجة الناس الاخرين لاخبار عن العالم الداخلي ، واذا ما استمروا طويلا بغير مثل هذه الاخبار فسيصيبهم مس من الجنون لخواء حياتهم وسخفها . وباكبر جراة فهمت ان الكاتب العظيم هو محطم الخواء ، هو الانسان الذي يصبح امين سر الالهة الخفية التي تتحكم في القوانين الباطنية التي تشدنا ببعضنا جميعا وتحطمنا اذا نحن لم نفهمها . وما الخواء الا الحياة التي تعاش بغير تأريخ .

وبمرور الزمن ، كثير من الزمن ، اصبح واضحا لدي اني لم اكتب تقارير الى الاخرين بل لنفسي بالدرجة الاولى. لم اكتب لاجد طريقا في العالم حسب ، بل لكي اكون على مبعدة منه ، كيلا تبتلعني الحوادث العفوية غير المعقولة . قرات الاغريقيين والتعبيريين الالمان في الوقت نفسه بصورة عرضية تماما فدهشت من تشابه وسائلهم الدرامية في شأن واحد ، أنهم ــ فيما يقدمون ــ يقدمون القوى الخفية وليس سمات الكائنات البشرية التي تقوم بادوار هذه القوى على المسرح . اخبرت بان مسرحيات اسخيلوس يجب ان تقرأ بداهة على مستوى ديني ، وهي مسرحيات عادية الان . لم استطع فهم ذلك الامر ، اذ لا ينبغي ان يكون المرء متدينا لكي يرى في قارتنا الخاصة الخطوط التي هي ليست انسانية ولا سماوية بل شيء بين تلك وهذه . ومثلنا على ذلك هو زعيق الغوغاء الذي هو ليس صوتا انسانيا لكنه مكون من اصوات انسانية تجمعت حتى اصبحت صوت قوة ميتافيزيقية .

قرات اونيل في تلك الايام كما قرات كل شيء آخر. متطلعا الى كيفية صياغة المعنى . وفي احد المؤتمرات الصحفية قال شيئاً كان يبدو في تلك السنين تحديا للاهتمامات الاجتماعية التي واكبت الثلاثينيات . قال : «انا لست اهتم بصلات الانسان بالانسان بل بصلاته بالله.» حسبت ذلك القول اشد ما يكون رجعية .

وبعد عدة غارات على مسرحيات الواحدة تلو الاخرى فهمت ما كان يعنيه وهو ما اعنيه انا بصورة درامية لا ايديولوجية . ومهما يكن من امر كنت أعتنق مذهبا ما ، يمتاز بقوى تشبه قوى الالهة . وهذه القوى تتمثل في الازمة الاقتصادية والمؤثرات السياسية التي لوت ومزقت وفتتت ودمغت كل شيء وكل انسان حطت عيناي عليه .

قرات مدة سنة في علم الاقتصاد واكتشفت كيف يتخلص اساتذتي من آرائهم المبتسرة التي لم تكن اقوى اساسا من آرائي ، وهكذا فعلم الاقتصاد يسعه ان يقيس خطى العملاق لكنه لا يستطيع التطلع الى عينيه .

وقرات مدة سنة علم التاريخ وفقدت آخر وهم بهذا الشأن في الساعة الثانية والنصف بعد ظهر احد الايام .

ففي قاعة احدى المحاضرات قام احد الطلاب ليسأل الاستاذ عما اذا كان يعتقد ان هتلر سيغزو النمسا . ولمدة ربع ساعة اخذ الاستاذ ذو الاهتمامات الانسانية اللبرالية يبرهن كيف انه من المستحيل على هتلر غزو النمسا ... وفي الساعة الثالثة سمعنا بغزو هتلر للنمسا . وهكذا نبذت التأريخ. لقد كنت اعلم علم اليقين ان هتلر سيغزو النمسا.

وبهذا المعنى كان الوقت ملائماً للنضج لان الاخرين ايضا لا يعرفون شيئا . فالقواعد والنظم لم تكن الا استمرارا للقواعد والنظم القديمة. وهكذا فالمسرحيات القديمة تخلف مسرحيات جديدة والتواريخ القديمة تخلف تواريخ جديدة ... وحين تبدع الحياة مسرحية جديدة يحرك المسرح اطرافه ويستيقظ من سباته (الاصطناعي) ليرى واقعا اعتياديا ، حين يمسك بتلابيب الحاضر ليصبح تأريخا .

بدات اتكلم على المستويات . لقد درست هذه القضية دراسة مستفيضة ولذا يصح عرضها بصراحة. ان مستواي مستمد بالتوكيد، من حياتي في الثلاثينيات، ولكني اعتقد بانه قديم قدم الدراما نفسها والشيء الذي فعلته هو انني حملت على النطق بلهجة الثلاثينيات . انني اسأل في المسرحية اولا السؤال الدرامي : ما هي اقصى طاقتها ؟ وكيف يمكن تفجير تلك الطاقة ؟ ثم السؤال الانساني : ما هي صلتها الحاسمة بديمومة الجنس البشري ؟

وقبل الاستمرار بطرق هذين السؤالين اود ان ابادر الى القول ان غرضي لا يزال يتركز في اضفاء بعض الضوء على حالتنا الدرامية الراهنة ، هذا التحدي الذي يظل امامنا قائما. سأتوقف لحظة أو لحظتين للتحدث عن الكاتب الذي كان مع ابسن ذا تأثير هائل في مسرحنا سواء عرفنا ذلك أم لم نعرف .

من العسير على المرء ان يتصور اي كاتب مسرحي يقرأ تشيخوف ولا يحسده على سمة واحدة من سمات مسرحياته هي سمة الاتزان . وفي هذا الشأن اظنه اقرب ما يكون الى شكسبير . فهناك اختصار في التشويه الذي تحدثه مقتضيات الرصد الزمني على المسرح وهناك تقليل من صف أوراق اللعب للفش بها ، وقليل من الخوف خشية الافتضاح ، ويسير من الارتعاب مما هو بطولي . اما لمساته فهي رقيقة ناعمة ، وكذا عينه فهي ساخنة سخونة جعلت الاسطورة التشيخوفية في مسرحنا اسطورة انسان عاطفي تقريبا وكاتب لم تكن مسرحياته الا مراثي عصر ميت وملاحق له .

ينبغي استطرادا ، القول انه لم يكن الكاتب الروسي الوحيد الذي يبدو وكأنه يتناول كل شخوصه بصفته ذات صلة بهم . ان هذه السمة ليست سمة تشيخوف وحده بل هي سمة معظم الادب الروسي ، ولم اذكر ذلك الا لكي انسبه الى هذا المزاج واقصيه عنه في الوقت نفسه .

تشيخوف مهم بالقياس الينا لانه استخدم اداة في مناجزة ضربين متناقضين من وجهات النظر في المسرح .

فيبدو احيانا ، كما هي الحال بالنسبة الى ولتر كير، معينا للدراميين المسنين على التوكيد المفرط في التأمل الباطني اذا لم نقل الشعور بالشفقة على النفس . واذا نحونا نحو وجهة النظر هذه ، يصبح تشيخوف كاتبا مسرحيا يشتغل في التحليل النفسي الشاذ والسكون الجامد من هؤلاء الذين تجري في عروقهم دماء زرق سود بمزاجهم الداكن. وقد استهجنه الكثيرون من اليساريين في الثلاثينيات بصفته عاجزا عن الروح الجهادية وبسبب الخلط بينه وبين الناس الذين كان يكتب عنهم .

اما مسرحياته فستبقى على الزمن ، على ما اظن ، لكنه غير ذي جدوى اذا ما احتذي حذوه في هذا الصدد .. فمدنيتنا اشد عنفا بما لا يقاس من مدنيته ، واذا جرب المرء اعادة خلق مزاجه فهو حتما سيشوه مدنيتنا هذه . والامر الذي هو اكبر أهمية من ذلك ، على حسب رأيي ، هو ان تعاسات شخوصه مهما كانت فهي تنسجم مع مسالكهم في الحيـاة في كفاحهم ضد تقاليد كانوا يدركونها اشد الادراك ، تقاليد عدوا تدميرها نهاية لآلامهم . وسواء أكانت كتاباته صادقة موضوعيا ام لم تكن فذلك خارج عن الصدد طبعا . المهم انهم (اي الشخوص) كانوا يستطيعون النظر الى الوراء ، الى زمن كان فيه الحوذي شابا صغيرا سعيدا لان يكون حوذيا، زمن كانت فيه حياة الاسرة متأصلة الجذور يتدرج نماؤها باتزان مع السنين المارة بهدوء،وبكلمة اخرى، زمن كان النظام فيه مسيطرا على العلاقات الانسانية ... ومن هنا فبستان الكرز يقطعها رجل يملك عقارا حقيقيا، ومهما يكن هذا الانسان لطيفا ، فان عليه ان ينظف الارض لتطور آت .

واقرب صلة بهذه التقاليد نجدها لدى تنسي وليمز.. اننا لا يمكن ان نعيد اخراج ما كتبه تشيخوف لاننا خلفنا وراءنا الاعتقاد بتفوق العلاقـات الانسانية على الضرورة الاقتصادية . لقد تخلينا عما كان يدعى في زمنه نضالا حيا . نحن نعتقد ، أو على الاقل ، نؤمن بالبداهة ، بانه كلما حدث صراع بين العلاقات الانسانية والضرورة الاقتصادية فان النتيجة ليست حتمية حسب بل هي تقدمية حين تنتصر الضرورة وهي منتصرة بلا ريب ولا شك .

ومهما يكن من شيء ، فان الموضوع الرئيسي الذي اريد التطرق اليه هنا بالقياس الى مسرحنا هو انه بينما يفسح المجال واسعا لبصيرة تشيخوف النفسية الثاقبة ، وبينما ان اهتمامه الاكبر يحتضن الحياة الروحية لشخوصه ، فمدى رؤياه لا يتوقف عند القضايا النفسية الفردية. هاكم خطبة على سبيل الذكرى ـ وهي واحدة من العديد من الخطب التي لا تتفق مع التشخيصات التقليـدية لهذه المسرحيات التي يزعم انها مسرحيات تطهيرية ـ وهي لا تعنى بشيء عنايتها برسم شخصية واقعية وتأمل باطني. يتحدث فيرشينين في « الاخوات الثلاث » فيقول : « ماذا لي ان استزيد من القول في هذا الفراق؟ ماذا لي ان اضع

من نظريات ؟ (يضحك) . الحياة صعبة . وهي تبدو للكثيرين فارغة لا امل فيها ، ومع ذلك ينبغي الاعتراف بانها أخذت تتوضح وتصبح اكثر سهولة تدريجا ، وهي تبدو وكأن الزمن ليس بعيدا ، الزمن الذي فيه تصبح مفعمة بالسعادة . (ينظر الى ساعته) حان وقت ذهابي ! في الايام السالفة كان الناس منهمكين في الحروب مالئين حياتهم بالمسيرات العسكرية والغارات والانتصارات . اما الان فكل ذلك امسى شيئا من الماضي ، خلف وراءه فراغا عظيما لا شيء يشغله حتى الوقت الراهن ، هذا الشيء الذي تسعى الانسانية اليه باحثة عنه باشتياق وحرقة وهي ستجده حتما . اواه لو كان ذلك سريعا . اذا لم تعرفوا مقصدي انني اعني ارتباط الصناعة بالثقافة والثقافة بالصناعة... (ينظر الى ساعته) لكني اقول حان الوقت لذهابي...)

وبكلمات اخر هذه ليست مجرد مسرحيات للتمرين في علم النفس . انها محبوكة حول نقطة جد دقيقة تتناول وجهة نظر ليس تجاه الشخوص حسب لكن تجاه المحيط الاجتماعي الذي يعيشون فيه ... ليس من الوقت ما اوفره للتنقيب عن المسرحيات الواحدة تلو الاخرى . كل ما قلته يعني هذا : بالرغم من كل مهارتنا في التقنية ووسائل الاضاءة الجيدة والترتيبات المسرحية ، ومع غنى مسرحنا وحريتنا في قول ما نرغب فيه من قول ، فان رؤيا هذا المسرح تضيق سنة بعد اخرى وهو يعيد بصورة جيدة ما فعله من قبل واحسن فعله .

استطيع أن اسمع منذ الان نقادي يتشكون من اني اطالب بالرجوع الى ما يسمونه مسرحيات المشاكل . ذلك نقد مهم لانه يتحدث عن شيء مهم يدور حول الناقد . ذلك يعني انه لا يستطيع ادراك الانسان الا بصفته كيانا منفردا وما الصلات الاجتماعية الا اشياء القيت عليه القاء، اشياء لا تؤثر فيه الا اذا وعى المجتمع وعيا . الى هذا الحد ارجو ان أكون قد اوضحت نقطة هي ان المجتمع موجود في دخيلة الانسان والانسان في دخيلة المجتمع وانكم لا تستطيعون ان تبدعوا ماهية نفسية صادقة على المسرح الا اذا فهمتم علاقات هذه الماهية اجتماعيا وسطوتها في ان تجعل منها ما هي عليه وتمنعها من أن تكون ما ليست منه في شيء. فالسمكة في الماء والماء في السمكة .

اعتقد اننا وصلنا في امريكا الى نهاية مرحلة لاننا نعيد ما كتبناه فصلا اثر فصل على الرغم من الواقع الذي يشهد على عدم ادراك اي منا لذلك . وفي كل نجاح نحرزه شبه باخيه في طبيعته وفي اصول ادائه . نجد في كل مسرحية انسانا ذكرا عادة وهو في غالب الاحيان حساس يندفع اما الى التمرد القتال أو الى الضعف (التناسلي) بسبب من تحجر والديه وبخاصة والده. نظرة سريعة غير مستقصية تذكرنا بـ « انظر الى الوطن يا ملاك » و« الظلام على اعلى السلالم » و« قطة على سطح صفيح حار» و« قبعة ملأى بالمطر». اود ان أؤكد انني لست هنا ناقدا لهذه المسرحيات بصفتها مسرحيات ولا أنوي مقارنة كل منها بالاخرى. انما انا انظر اليها بصفتي شخصية غريبة جاءت من المريخ، وهي ستدهش حقا من هذه الظاهرة السائدة .

انا لا اقول بوجود (عيب) في هذا الموضوع الرئيسي يكفي انني كتبت عنه اكثر من مرة واحدة وهو موجود في صميم التطور البشري باسره وصداه يمتد الى «هاملت» و« روميو وجوليت » و« الملك اوديب » . ان الذي انقده هو ان مسرحنا يكاد يقتصر باهتمامه على النتائج . فحين يقف الوالد ينتهي العالم وفي المكان الذي يقف فيه الولد ينبغي للعالم ان يبدأ منه وعلة ذلك انه اما يصبح ضعيفا جنسيا او متمردا أو فارا من الساحة غالبا. ما العيب في هذا ؟ الا يحدث ذلك دائما ؟ لا بد من ذلك والا لما اعاد كتاب المسرحية هذا الموضوع الرئيسي ولما كان له هذا السحر الذي يجتذب العديد من الجماهير .

ليس القصور في الموضوع بل في اخفاقه ليوسع نفسه بحيث يفتح مجالا للاسباب الاساسية. المسألة، في الواقع، لا تتعلق بمجرد خيبة الاطفال او بافلاس السلطة الاخلاقية لدى الابوين بل في وعيهم المشترك بعلية خفية في وقتنا هذا . واذا كان هذا الموضوع يتكرر بهذه الصورة فهذه ظاهرة يحق لها ان تدعى ظاهرة اجتماعية عامة. ومن هنا، من الملائم ان نقول ان رؤيا هذه المسرحيات بقابليتها الكامنة لم تحقق اهدافها ، وظلت قدرتها الجمالية الكمالية غير منجزة ولعل اهم من ذلك كله وجود انحطاط عصبي في هذه الرؤيا بصورة ضمنية بالاضافة الى تلاشي القوة التي تستوعب العالم باسره على المسرح وهو العمل التاريخي للدراما الرفيعة . سر حالتنا لا يزال باقيا غير مكشوف ، لكننا نعرف عنه اكثر ما يبدو على المسرح .

انا لا أطلب اي شيء جديد بل شيئا قديما قدم الدراما الاغريقية . حين ابدع تشيخوف ذلك الانسان الذي يكاد يكون كاتبا ذاتيا بطله « فيرشينين » واخرين كثيرين في مسرحياته مموضعا (1) Objectify المسائل الاجتماعية التي اثارتها مسرحيته « الاخوان الثلاث » انما وضع نفسه في اطار التقاليد العظيمة التي تدفع بالفن الى الحركة بالنظر الى ديمومة الجنس البشري .

اننا نحن المجددون او بصورة ادق نحن لعب ان رفضنا ان نعكس على مسرحنا مستوى من الادراك الموضوعي الواسع المنتشر في حياتنا خارج المسرح .

اني اطالب بوضع الدنيا على المسرح العائلي « الاسرة المسرحية » لكني ابادر وانهي كلامي ، على ان يكون ذلك من وجهة النظر الدرامية ، من ناحية الدرامي وهو يجهد لتعزيز قوة مسرحياته ومسرحه ...

وجملة القول من الضروري أن يتمكن المرء من استيعاب

(1) ـ هذا اصطلاح فلسفي بمعنى جعله موضوعيا ، وانا ادين به ، على ما اعتقد للدكتور كمال الحاج . المترجم

من اغاني القافلة

صغيرتي ، يا موعـدا في غد .. من الشروق، والرؤى .. والظلال
القاك ، ينبوعـا ، يبل الصدى .. في رحلة خلـف سراب المحـال
اطل في عينيـك ، مستلهمـا .. أشـلاء مـاض ممعن في الزوال
رفعتـه فوق جبـين الرؤى .. كمـا يشاد الصرح فوق الرمـال
مضى مع الريـح ، الى عـالم.. خلف صحارى الغيب.. خلف الخيال

***

وكنت ، يا صغيرتي ، شاعرا .. يـلون الدنيـا بأحلامـه ..
ويوقد الشمع لها .. عـابدا .. يطعمهـا أعـذب ايامـه ..
يمنحهـا الحب ، ولا تـأتلي .. ناكـرة ، تغـلو بايـلامـه
تطفىء عينيـه ، باعصارها .. يعبـق برداهـا بأنسامـه
وتقلـع البسمـة عـن ثغـره وتسكب المـوت بأنغـامـه

***

ولى زمـان الخصب .. يا ويلنا مـا عاد غير الموت .. من حولنا
نحن ، تيـاهى ، في ضمير الدنى ضاعت خطانا في دجى دربنـا
ترابنـا المؤول ، في غربـة .. يحـن ، كالشـوق ، لايامنـا
وموسم الخصب غـدا شاحبا.. يتوق ان يونـع في ارضنـا ..
جفت ينابيع المنى .. وانطوت.. لا ومض في الاعـين غير الضنـا

***

صغيرتي .. انت هنـا عـالم .. من غير لون.. مستباح، شريد ..
الشمس لا تشرق في ارضـه .. ولا يغنـي بلبـل غـريـد ..
وكـل معنى خيّر .. خـالد .. تموت سيماه ، ويفنى الخلود ..
انت، هنـا، غريبـة يا «رلى» .. بنـا غريب، مستذل ، طريد ..
يعيش للموت .. ومـا مـن منى يحيا لها العمر .. سوى ان يعود

***

فخبئي الجرح .. ولا تحفلي .. فالصدر اولى ان يـوارى الالـم
وابتسمي .. الحـزن يا طفلتي يطفىء في جنبيـك نـار الحمم
وأوقدي شمعـك .. ان الدجى يضيّـع الدرب .. وراء الظلـم
تربتنـا السمراء .. ظمآنـة .. وليس تسقيهـا دمـوع النـدم
خلي دمـاء الجرح .. يا طفلتي نسقي ثراهـا عنفوانا .. ودم !

الكويت — **راضي صدوق**

ما يراه كما هو وكما ينبغي ان يكون او لا يكون. ان خيبتنا الراهنة في التمييزين ما هو منحط او رفيع من الامور بين ما هو مسهب وضيق نسبيا ، تتركنا كما تترك معظم النقاد تحت رحمة (النتائج) اي ان مسرحية مهما تكن غير ذات شأن يذكر وانتهت نهاية ناجحة تعدل ـ في جودتها ـ مسرحية عظيمة ذات ابعاد اوسع واهم .

والنتيجة الوحيدة لهذا الوهن في عدم التمييز بين اقدار الامور واهميتها ، تتلخص في الحكم علينا بان نظل نقبع في اطار فن تافه القيمة والثمن ...

بغداد — **يوسف عبد المسيح ثروة**

كلهن سواء

بقلم قاسم جودة

يتململ سعيد في فراشه ثم يرفع يده ليفرك عينيه بشدة ، ويطل بعينين شبه مغمضتين عبر النافذة الزجاجية ، الظلام دامس !. يغمض عينيه ثم يجذب طرف اللحاف ويدفن راسه تحت الوسادة ، بعد وقت لا يدري اطال ام قصر يصحو على صوت مترجرج يناديه :

ـ سعيد ... سعيد .. اصح يا بني .. عما قريب تشرق الشمس.

يتململ ثانية في فراشه الدافىء قبل ان يفتح عينيه ويلقي تحية الصباح على والدته العجوز ، ازاح طرف اللحاف عن جسده فشعر بالبرد القارس يلسع جسده ، فكاد يعيده ثانية لولا ان تذكر ان عليه عملا يجب ان يقوم به اليوم .. وكل يوم.

يسير الى ركن الغرفة الصغيرة حيث وضع ابريق فخار ، يمسكه بيد ويضم اليد الاخرى التي لم تلبث ان امتلأت بالماء ، يرفعها الى وجهه بتأفف وضيق .. ايجب ان يغسل المرء وجهه كل صباح ..؟ وبمثل هذا الماء البارد ..؟ لو كان غنيا لما كانت هناك حاجة الى استعمال الماء البارد ... لا حاجة على الاطلاق ، يكفي ان يفتح صنبور الماء فيأتيه ماء دافىء من « البويلر » ، وترك لخياله العنان .. وايضا زوجة جميلة تكون بجانبه تقاسمه الفراش ... تشعره بالدفء ، وتذكر « سليمة » فطفت على وجهه ابتسامة امل وترقب ... وحدث نفسه « يجب ان اعمل ... نعم يجب ، وان ارهق نفسي حتى احقق لها السعادة التي تتمناها » .

ويتنبه الى صوت والدته تدعوه الى الفطور ، فيضع الابريق ويرفع يده اليمنى ماسحا وجهه المبتل.

تناول كوب الشاي وقطعة الخبز الجافة مع قطعة من الجبن الابيض على عجل ثم انتعل حذاء الكاوتشوك « المرقع » وحيا والدته مغلقا وراءه باب الغرفة .

يا الله !! ما اقسى هذا الصباح ! برد قارس ! ويضع يديه المثلوجتين بجيب سرواله « الخاكي » ويقوس ظهره .. يتمخط بشدة ثم يرفع عينيه الى بناء صغير امامه ، النافذة الخضراء مغلقة .. ألآن لم تستيقظ سليمة ؟.. في كل صباح تكون بانتظاره على النافذة فيلقي عليها تحية الصباح ... اووه ما بال النافذة مغلقة ..؟ يجب ان يراها ... لن يستطيع العمل دون رؤيتها ، ويطلق من شفتيه صفيرا خافتا ويلتصق بالجدار درءا للبرد ... وانتظر .. ما بالها لم تظهر ... يا الله ...؟ عبثا ينتظر ! واحس بجسده كقطعة من ثلج ، ولكنه احتمل وقاوم نفسه بعدم الذهاب ، حدث نفسه وهو ملتصق بالحائط بعنف « ربما تكون نائمة » نائمة !! وتتركه في هذا الجو ..؟ ما اقساها !! أيطرق النافذة ..؟ جنون !! ربما يكون معها احد من اهلها ثم لم يطاوعه قلبه على ازعاجها .. دعها تحلم وتتنعم بالدفء اتراها تحلم به ..؟ من يدري ! لقد حلم الليلة حلما مزعجا فاستيقظ على اثره ليرى دموعه تبلل خديه ووسادته ... ماذا يكون مصيره لو ماتت سليمة كما حلم الليلة ...؟ ما اقساه من حلم !!

ويسمع صوت خطوات ثقيلة تقترب منه ... « سليمة » لم تظهر بعد ، يجب عليه أن يرحل في الحال، غير مستحسن ان يراه انسان في وقفته هذه ، ويقتلع قدمه من الارض اقتلاعا ويسير بخطوات متثاقلة .

الشمس بدأت بالقاء أشعتها الذهبية ، ويحس سعيد بدفء قليل يسري في اوصاله فيخرج يديه من جيب سرواله ويفركهما ببعض بعنف محاولا تدفئتهما .

اخيرا يصل مكان عمله ، المكتبة ما زالت مغلقة ! ويتذكر صاحبها السمين .. لا بد انه ما زال نائما في فراشه ينعم بالدفء ، وهو هنا يقاسي البرد ! اهذا عدل ..؟ حدث نفسه « غدا سأصبح مثله ، لن انهض من الفراش قبل الثامنة ... وما حاجتي الى النهوض بعد ان تكون جيوبي مليئة بالنقود ..؟ ثم وبجانبي زوجة طيبة وجميلة كسليمة .. »

الساعة السابعة والنصف ... ويسمع صوت سيارة تقترب ثم تقف امامه ، ويرفع عينيه ليطالعه صاحب المكتبة بكرشه الضخم ووجهه الممتلىء وعينيه المحمرتين ثم « طربوشه » الاحمر الفاقع .

ويهرول سعيد تجاهه ملقيا عليه تحية الصباح ويتناول منه مفتاح الباب، ما ازعج صوت الباب الحديدي عندما يرفع الى اعلى ..!! بالداخل يشعر الانسان ببعض الدفء، ويتجه صاحب المكتبة الى مكتبه الانيق بينما يقبع سعيد خلف « الفترينه » على كرسي صغير منتظرا وصول الجرائد.

منذ خمس سنوات وهو يعمل في هذه المكتبة، كل صباح يحمل الجرائد والمجلات ويأخذ طريقه الى السوق مزعجا المارة بنداءاته المتكررة .. الدفاع .. الجهاد .. « الحق آخر الانباء » « حدوث زلزال فى اليابان ومقتل ٣٧ شخصا» . وعند الظهيرة يعود ثانية الى المكتبة ويتناول رغيفا من الساندويش ثم ينتظر صحف المساء حيث تبدأ جولته الثانية في الاسواق .

نهاره عمل متواصل ، ينتظر الليل بفارغ صبر حتى يريح قدميه

قصة

المتعبتين .. كم راودته نفسه على ترك العمل ! ولكن من اين يأكل ويطعم والدته العجوز ..؟ ثم كيف يستطيع الزواج من سليمة ..؟ وهذا هو المهم !

قبل سنتين ابتدات قصة حبه مع سليمة ، ومنذ ذلك الحين وهو يعمل بجهد مدخرا بعض المال حتى يأتي اليوم الموعود ... سنة كاملة مرت دون ان يعلم انسان بقصة حبه ولكن اخيرا اكتشفت والدته الحقيقة، توقع ان تثور ولكن هذا لم يحدث بل باركت حبه واخذت تقتر على نفسها ليدخر بعض المال حتى تفرح به .

وتقف سيارة بباب المكتبة فينهض مسرعا ليأخذ الجرائد الصباحية منها ، ويبدأ عمله ... يضع الجرائد والمجلات تحت ابطه ويأخذ بالنداء والهتاف ... الجهاد ... الدفاع ... وتأخذ يده تمتد تحت ابطه من حين لآخر مناولا الجرائد لمن يطلب.

ويقترب من بيت الاستاذ « عبد الرحمن» فيعرج عليه ويقرع الجرس ... كل يوم يقرع هذا الجرس ومنذ سنة كم هو لطيف وطيب الاستاذ « عبد الرحمن » . قبل شهرين نمت بينهما صداقة متينة ، فقد كلفه الاستاذ بالقيام برسول الحب بينه وبين فتاة يحبها لانه رأى سعيد يذهب كل يوم بجريدة لبيت الفتاة. وقد سر سعيد ايما سروربهذه المهمة، فهو يحب ، واكثر ما يسعده ان يرى حبيبين ينعمان بالسعادة والهناء .

ويفتح الباب ، الاستاذ على غير عادته ! من اين هذا الشحوب الذي يكسو وجهه ..؟ ثم اين بسمته الرائعة التي كان يقابله بها ..؟ ولم يشأ سعيد ان يسأل عن السبب ، فليس من عادته التدخل بشئون الغير ويناوله الجريدة ويهم بالانصراف ، لكن « عبد الرحمن » يستوقفه :

— لحظة سعيد ... عندي رسالة الى (...)

ويدخل الاستاذ ثم يعود مسرعا وبيده مظروف ابيض ويناوله لسعيد .

— لا تنتظر الجواب .

حدث سعيد نفسه « عجيب امره اليوم! لا تنتظر الجواب !! كما يريد». لكنه يتنبه الى ان الظرف مفتوح فيقول للاستاذ .

— المظروف مفتوح ...

يرد وهو يغلق الباب .

— لا بأس ... لا بأس .

نزل سعيد الدرجات وهو لا يزال يفكر « شحوب وجهه ... الابتسامة اين هي !! ثم هذا الشرود ، وعدم الانتظار لاخذ الرد .. في كل مرة كان يأخذ رسالة كان ينتظر جوابها ، اما اليوم ... لم لا يريد جوابا لرسالته » ؟

قلب المظروف بيده .. ترى ماذا يحمل من اخبار ...؟ وراودته نفسه على قراءة الرسالة ، ولكنه احجم قال لنفسه « ليس هذا بطيب » . ولكن الفضول غلبه وبيد مرتجفة اخرج الرسالة وبدأ يقرأ .

« آنستي :

لا ادري لم كلفت نفسي عناء الكتابة اليك بعد الذي رايته البارحة ! من كانت حبيبتي ، من عاهدتني على الود والوفاء ، من كنت حبها واملها الوحيد ، اجدها بصحبة انسان اخر بمكان مشبوه وفي وضع مستهتر ، لا اريد بهذه الرسالة ان اعاتبك او ان اترك لك المجال لتبرئة نفسك ، انما ما اردته ان تعلمي ان ما كان بيننا قد انتهى . والسلام » .

طوى سعيد الرسالة ثم اعادها للمظروف ثانية ، سحابة من الحزن دكناء كست وجهه « يا لك من غبي معتوه ، كيف سولت لك نفسك بالاطلاع على اسرار غيرك حتى تفاجأ بما تكره ...؟ هل تصورت يوما ان تكون هذه نهاية للحب ...؟ ويح هذه المراة كيف سولت لها نفسها على الخيانة ..؟ كيف طاوعها قلبها ..؟ واخيرا قرر « انها بلا قلب » .

بعد لاي وصل بيتها فقرع الجرس ولم ينظر الى من فتح الباب بل امتدت يده بالجريدة والرسالة وقفل راجعا لا يلوي على شيء ... لكن طرق اذنه صوت يقول ..

— الا تعود لاخذ الرد ...؟.

عاد ثانية الى المكتبة يجر نفسه جرا ، معدته خاوية لكن لا شهية له .. ما كان اقساها هذه المراة ..اهان عليها الحب لهذه الدرجة ...؟ لو كان حكمها بيده ما ابقاها لحظة على قيد الحياة .. انها مثال للرذيلة والفسق ... وتصور سليمة .. مثال الطهر والعفة ، كيف تنتظره كل يوم بلهفة .. ولكن القلق بدأ يساوره .. لم لم تنتظره صباح اليوم ... اتكون كهذه ..؟ وسارع بطرد هذه الوساوس .. ربما لم تكن قد استيقظت من نومها ... « نعم لا بد ان يكون هذا ... » وارتاح لهذا القرار .

وفي المساء عاد الى البيت منهوك القوى ... القى بتحية المساء على والدته العجوز ، ثم خلع حذاءه الكاوتشوك فنفذت الى انفه رائحة كريهة نتنة ، فقرر ان يغسل قدميه، وتذكر الماء البارد ثانية فاقشعر جسده ، لكن ما العمل ..!!

سكون ووحشة يخيمان علىالغرفة فليس هناك من صوت سوى مضغ الطعام بين فكي سعيد .. ولم يحتمل سعيد هذا السكون .. أعصابه بدات تتمزق . قال :

— ما بك يا امي ...؟ الا تتحدثين ... الا تقولين شيئا ...؟

ردت بشيء من الحيرة .

— وماذا تريدني ان اقول ...؟

— اي شيء ... تحدثي .. ما بالك صامتة على غير عادتك ...؟.

عادتتقول بنفس الصوتوالحيرة.

— بعض الاحيان يكون الصمتابلغ من الكلام .

قال بدهشة .

— ماذا تعنين ....؟ .

— لا ادري ماذا اقول !!.

ترك سعيد اللقمة التي بيده واقترب من والدته قائلا ــلاول مرة

صرخة في وجه دعي

أقصر ! عرفتك ، لا تزد   هذا زمان الادعياء
الحب فيه ... مزاعم   معسولة ، لفظ خواء
الحب فيه ... بلاغة   خطب تبدد في الهواء
الحب عندك ... عالم   مذ كان ليس سوى رياء
تبنى القصور به ، وته   ـلؤها بالوان الطلاء
وتحوطها بالزهر ، ير   فل في البشاشة والبهاء
وتبث في جنباتها الـ   أطيار تصدح بالغناء
دنيا من الزيف الجميـ   ـل تصوغها ، محض ادعاء
دنيا من الالفاظ .. تلـ   ـمع ، في ظواهرها الرواء
كم من غريرات دفعـ   ـت الى جوانبها ، اماء
هـن الفراشات التي   للموت ، يجذبها الضياء

أحسبت انك بالكلا   م الحلو تخدعني ؟ هراء
اذهب فلست كمن عرفـ   ـت ايا دعي من النساء
أظننت ان الناس يا   مسكين كلهم سواء
أحسبتنا كلا فراشات   ينوح لها الضياء
فتطير في شوق اليه   وفيه يختبىء الفناء
لسنا فراشات جميـ   ـعا ، يا دعي ، ولا سباء

انا قد عرفتك ، قد هتكـ   ـت الستر ، فانكشف الغطاء
وبدا الذي تخفيه من   زيف ، بدا كل الرياء
عريت روحك كلها   مزقت ذياك الرداء
فبدوت قزما تافها   لا ، لا تطاول ، لا اجتراء

اني كشفتك ، قد محو   ت الزهو ، فانهدم البناء
دنيا الاكاذيب التي   شيدتها ، دنيا الدهاء
سقطت كاوراق الخريـ   ـف ، تناثرت عبر الفضاء
ووقفت وحدك ، عاريا   كالمسخ ، في هذا العراء
ورجعت وحدي في طريـ   ـق النور ، رأسي للسماء

شبين القناطر – ج.ع.م   عبد المنعم عواد يوسف

بعنف :
– ماذا حدث ..؟ اخبريني ..؟
ضربت كفا بكف قائلة :
– سليمة .
فصاح جزعا ...

– ما بها ... هل حدث لها شيء
... هل ماتت ...؟؟؟
– ليتها ...
ونظرت اليه قبل ان تكمل .
– لقد هربت مع الفران .

لم يقل شيئا ، لكن ثم تعبيرات تائهة ارتسمت على محياه ، وانفرجت شفتاه قليلا عن كلمة حاول ان يخرجها لكنه لم يستطع .

طولكرم – الاردن   قاسم جودة

مكتبة الاديب

ادونيس وعشتروت

ملحمة شعرية – فؤاد الخشن – ١٤٨ صفحة – مع عدة لوحات – منشورات دار مكتبة الحياة بيروت – (لم يذكر اسم المطبعة)

كلما فكرت بفؤاد الخشن شاعر الريف والمرأة الرجل الذي خمر الجمال في نفسه وهلهله على سجاياه المنعمة ، ثم اطلقه نواسم تومض بالدل واللين لكأنها عرائس ملوك تخطر بالديباج والحرير ، كنت احار كيف يفتح له وقد هدهده ريف سخي العطاء ومحاسن مغرية المياسم ان يروح الى الملاحم ولا يفقد من ارجه الشعري ما يحمله الندى عن جفاف الورد .

وقد اصبحت هذه الحيرة توقا الى لقيا شاعر الريف والمرأة على ملحمته ادونيس وعشتروت فما تحللت من اقمطتها الا وعلى يدي منها ما تنقله جيوب العطار ، وفي داخلي ازدياد للاخذ ، فالخير عمم والغلال فوق الحاجة وكان ان الذي حرت من امره وظننته سببا مانعا للدخول الى هيكل الملاحم ، هو الذي أهل فؤاد الخشن ان يدخل محراب ملحمته – ادونيس وعشتروت – على خيلاء المواكب المظفرة .

حلاوة الكلمة وملاستها التي ضرها الريف والقى عليها اكثر من وشاح ، والرقة المنهلة من الحرير السائح على الاجساد الريانة مسحت عن الجو الملحمي الحدة والنزق وطبعته جوا ناعما رخيا ، فكان لنا ، من مدخل الملحمة حتى حرفها الاخير ، لعبة الحان تغني جزالتها عن التطلع الى التفاف الطيب واين جوانبه ، فالميزة الفنية التي اهلت فؤاد الخشن لارتقاء برجه العاجي كشاعر الريف والمرأة هي التي ، بطريقة غيرمباشرة القت اليه مفاتيح ابواب الملاحم المسحورة .

منذ الحرف الاول من هذه الملحمة ، ادونيس وعشتروت ، استطاع فؤاد الخشن ان يؤهل الزمان والمكان للجو الذي يريده ، لا سيما والموضوع لا يبعد كثيرا عن الريف ، اذا لم يكن من صميم الجمال المشترك بين المرأة والريف ، فنجده وقد سمى الامكنة باسمائها ، يحد لها الافاق ويجلو الاجواء :

نحـو شط في مدى المشرق … فضي الرمـال
لاصق في لازور والافـق … عطري الظلال
صيغ من ذوب الصبابات … ومن لون الخيال
مرحا للحب والتيـه … لربات الجمال
خلفـه شم جبـال … تختفي خلف الضباب
تحت طيـات غـلالات … من النور المذاب
وعروش من غصون الارز … خضراء القباب
ركزت في القمم السمر … على هام السحاب

هنا نلاحظ ان اللحن مهر اللون بافياء القت على الصورة غلالات واوشحة جعلت الواقع يبارح مكانه الى ما وراء الواقع فيبدو المشهد وكأنه ينفتح عن مطاو كلما لففت منها غلالة تكشفت عن هالات واضواء تشف عن مناظر اكثر بهجة واروع افتنانا ليروح بك الى اشياء احببت النظر اليها والاستماع الى غنتها لكنها بقيت تحت رواء باهر حتى اتيح لها من يكشف عنها الفشوة .

يقول اوسكار وايلد الاديب الايرلندي في كتابه الخالد – من الاعماق – ... وكما تأخذ الاجساد جميع انواع الاغذية وتحولها الى عضلات قوية ورواء وفتوة هكذا يتناول الفنان جميع الانفعالات والمؤثرات والدوافع ويصهرها في نفسه ثم يطلقها روائع فنية ... وقد استطاع فؤاد الخشن ان يحوز صفة الفنان المولد ، فبين يدي اربع قطع فنية تناولت اسطورة عشتروت ، كل واحدة منها اخذت ناحية وهي قصيدة شكسبير ، وعذارى افقا لفريد مدور ، وعشتروت للدكتور حبيب ثابت، والنشيد لاحد شعراء قبرص وضعه خصيصا لموكب عشتروت وترجمه الى اللغة العربية فيلسوف الفريكه امين الريحاني ..

هذه القطع الاربع الخالدة ، لم تؤلف في مجموعها لحنا مكتملا لسفر الحياة الذي ارادته اسطورة عشتروت ، بل بقيت ومضات من تلك الحكاية الابدية ، حكاية الولادة والموت والبعث ، حكاية الحب والطهارة، التي شاءت النزوات ان تحولها فيما بعد الى ارجاس مع الابقاء على الفكرة الاساسية ، استمرار الحياة في التوالد لكان فصولها هيالفصول الاربعة بالذات ..

في القطع الاربع التي ذكرت ، كثير من الشعر والخيال والموسيقى والجمال والاتزان لكنها بقيت كالعازف على كمان مبتور الوتر ، حتى جاءت ملحمة ادونيس وعشتروت تقوم بذاتها وحدة تامة ليس للاسطورة فحسب بل لواقع الحياة على شتى نواحيها فلم يكتف الشاعر باللفتات العابرة ومداواة الجمال على ضربات من هنا وهناك ، بل ابتداء مع البدء ينتهي الى حيث يجب ان يرتفع حجر آخر في بناية تشاد ليس على انقاض الاولى بل فيجوارها، فقد مشى الدرب قبل ان تمشيها عشتروت ذاتها في موكب لبناني يتناسب وروعة القادمة من وراء الغيب

وافاق الزهر في فينيقيا … ذات صباح
فاذا في الشط انوار … وترجيع صداح
وفراش يغمر المرج … بالوان الجناح
وغبـار ذهبـي … سكرت منه الاقاحي
واذا في الشط في تلك الرمال السمر طفله
حسنها حسن غريب … لم تر الاعين مثله
كلما سارت على الشط … بخطوات مدله
قبل الرمل خطاها … قبلة في كل نقله

ويسير مع الاسطورة محسا للجمال راسما للدروب والشعاب ، ككل ريفي عريق بنعم الريف حتى اذا شاءت له الهنيهة تقطبا وعبوسا ، مزج الهم حتى مع البرعم المتفتق وضرب بهما وجه البهجة فاذا لدينا جمال الاسى واقتتال الخيبة مع الامل على اناشيد فيها الحزن ضرب منالكمال الروحي الشفاف ..

اظن هذه الميزة الفنية في شعر فؤاد الخشن قد جاءت نتيجة حياة عاشها هو هنيهاته الحيرى فكانت الدليل الى النبض الخافت والصاخب في آن واحد الذي حمله الى استلام الجمال على شتى معانيه واشكاله .

فوقها ستر شفيف … من رمادي السحاب
مثقل بالدمع في رعشاته … ظل اكتئاب
وعلى الارض رداء … من غلالات الضباب
متعب اللهفة يبكي … مثلها موت الشباب

تعمل الاظفار بالنهدين … تمزيقا مريعا
فوق من غنت لعينيه … فما كان سميعا
تنثر الحسرة واليأس … على الحسن دموعا
تنبت النرجس احداقا … ثكالى وولوعا ..

لسنا لنذهب الى مدارج الملحمة مدرجا مدرجا فقد تفقد كثيرا من

الرواء والحياة اللذين اكسبها اياهما الشعر ، انما لنا ان ننوه بما ادخله عليها صاحبها من جديد لم تمر به ايدي من تناولها شعرا مما جعلها تأتي مكتملة الوحدة الملحمية لانها حملت بين طياتها سيرة اختصرت فيها الاعصر ، جامعة في تقطير مكثف حلاوات الفكر الانساني على نقي خيال فكان لا بد له من الذهاب الى الميثولوجيا اليونانية التي هي حتى يومنا المصدر الوحيد للاساطير واحاديث الارباب وستبقى كذلك حتى يتاح لنا الكشف عن تراثنا في رأس شمرا او في اي من مدننا الخالدة امثال جبيل وصيدا وصور ، لذلك نراه قد اضفى لونا جديدا على هذه الاسطورة عندما ذهب الى هوميروس في كتابه ـ الادوسي ـ مصورا لنا هدز ـ اي مملكة الاموات ـ لكأنه اعتلى مع المعري او دنتي ، مركبة الخيال الى اعماق الجحيم ..

مما لا جدل فيه ان الفنان يعايش روائعه ، فهل وجد فؤاد الخشن جحيمه ونعيمه على هذه الفانية فاستطاع ان يجمع في قبضة واحدة مآسي الحياة سقمها وعذابها وآلامها مع الفرحة الكبرى والبهجة الرضية، والارتياح المنعم ، ثم ، وقد صهرها في ذاته ، يطلقها بوحة فيها الانغام على انسجام فلا ينبذ وتر وترا ، بل سوحة ملحنة موقعة فيها من اللون ما فيها من الصوت الملائم للواقع والزمان ، لنجد انفسنا في صميم هدز.

.. وانتهى الوادي بسد   من غمامات مطيره
فوقه جمجمة تملأها   الطين كبيره
مد فيها الطحلب الرطب من الدمع جذوره
وبدت من محجريها   ازهر الليل النضيره
.. ها هنا مملكة الاشباح   دنيا اللاحدود
روعة المطلق والصمت   وعمق اللاوجود
كل يوم ها هنا   نغفو على وعد جديد
كل سد حين يهوي   يتجلى عن سدود

من المؤكد ان فؤاد الخشن التقى جميع ضروب الحياة ، وكم سواه عايشها ايضا لكنه خرج منها صفر اليدين بينما استطاع هو ان يقيمها وينقيها كالصناعي الماهر ثم يتركها لوحة تتهاوى عليها الافكار فتالق على نضارة حسبها انها استطاعت ان تماشي جمال ريفنا ، وما في جبلنا الاخضر من مؤتلفات محاسن وفكر تندفع الى الاعلى في انتجاعها مرامي الارواح ، فاذا بها مضمرة مرهفة الحس للاخذ والعطاء معا :

خلجات التربة العطشى   شفاه ظامئات
وعروق الكرمة الصفراء   شوق وصلاة
وشقوق الارض   افواه ابتهال
هامسات يا عيون الغيث باسماء اين القطرات
رمقا من زبد الموج   تهاوت بانشاد
سرب اطفال فراشات   مرفات صواد
زغبا من ريش نجمات   شقيات السهاد
نتفا من نرجس السفح   ومن فل الوهاد .

وبعد انها لعبة ترف لعبها فؤاد الخشن في ملحمته ادونيس وعشتروت حيث سلط الاسطورة على الحقيقة والحقيقة على الاسطورة مازجا بينهما على اناقة ذهبت بميزة كل منهما لتكسبهما صفة جديدة تتفرد بذاتها ، فقد تلاعب ، من وراء ذوقه المرهف بضروب الفن حتى اتيح له ان يجعل من الملحمة انشودة ومن الانشودة ملحمة ، مثيرا عاطفة في الخيال تقربه الى التجسد حتى اذا كان اللمس انسلت الاطياب على ضجيج الى حنايا اللامحدود حيث الارواح على مراشف الورد واكمام الزهر في ربيع دائم :

واذا الزهر لحاظ   وشفاه حاكيات
انمل تومىء للحب   وغمز والتفات
وغوى شال طروب   وخصور طيعات
وسنا هدب ذهيب   هي في الليل صلاة
وكؤوس افرغت في الفجر   اشواق الضلوع
نافضات عن عقيق الجفن   حبات الدموع

فافاق النـور رفافا عـلى الزهـر الولوع
وافـاقت ارض لبنـان عـلى طيف الربيـع .

وانه لربيع دائم الاخضرار مع ملحمة ادونيس وعشتروت فقد اطلقتها مخيلة شاعر ، تفاكه والجمال ، على نثر اطياب وتجاذب الحان .

فوزي سابا

•

امير البيان شكيب ارسلان

تاليف احمد الشرباصي ـ جزءان ـ ٩٣٣ صفحة ـ مطابع دار الكتاب العربي بالقاهرة

الاديب اللبناني الكبير الذي ولد على بعد عشرة اميال من بيروت في بلدة تسمى « الشويفات » عام ١٨٦٩ ، وقدر له ان يعيش عمرا مديدا بلغ سبعة وسبعين عاما ، قضى منها في الكتابة ستين . والذي تعلم التركية، والفرنسية ، والانجليزية ، والالمانية الى جانب لغته العربية .. فافاد من ذلك فائدة كبرى ... هو شكيب ارسلان ... موضوع الكتاب الذي بين ايدينا ... والكتاب هو الرسالة التي نال بهـا فضيلة الاستاذ احمد الشرباصي درجة « الماجستير » بتقدير ممتـاز ، من معهـد الدراسات العربية العالية بالقاهرة ، مع توصية بطبع الرسالة على نفقة المعهد .

وفي هذا البحث الاكاديمي نلتقي بدراسة تاريخية ، ونفسية ، وفنية، كما نلتقي بالعرض والرصد ، والتفسير والتحليل ... ثم التقييم .

وقارىء الكتاب يحس ان الاستاذ الشرباصي لم ينحرف عن المسار الذي خططه لنفسه منذ شرع يحرك قلمه على الورق ، ودانت له الخيوط التي تحرك عمله الفني العظيم ، حتى استطاع ان يصل الى قلوبنا بالاقناع ، ويصعد الى القمة بالابداع .

والنقطة الاولى الجديرة بالتنويه ... هي التوفيق في اختيار الموضوع فما احوجنا اليوم الى مزيد من الالتفات نحو الزوايا المنسية من تاريخنا الادبي لنمسح عنها غبار الزمن .

الجزء الاول يحتله ستة ابواب : في الباب الاول يتناول المؤلف عصر شكيب من ناحيتيه السياسية والاجتماعية بما ضمه من نشاط متنوع خلال ما يزيد على ثلاثة ارباع قرن ، في فترة شهدت نهضة ادبية ضخمة نتيجة الاحتكاك بالثقافات الاجنبية الواردة ، وذلك في اخريات القرن التاسع عشر ، واوائل القرن العشرين .

وفي الباب الثاني نزداد تعرفا على « الامير » ... حياته ، ونسبه، وطائفتـه .. وهي طائفـة « الدروز » ، ويعلـل شكيب لتلك التسمية فيقول : « انما سموا الدروز نسبة الى نشتكين الدرزي العجمي احـد دعاة الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي » ..

ونخرج من هذا الباب بدراسة تامة لمراحل نشأته ، وفترات تعليمه ونتعرف على من اثروا فيه ، وفي مقدمتهم الرجل الذي نفث في الادب نفثة قوية ، وهز الشرق هزة عنيفة ، ذلكم هو : جمال الدين الافغاني، الذي اثر في : محمد عبده ، وعبد الكريم سلمان ، وابراهيم اللقاني ، وسعد زغلول ، وابراهيم الهلباوي ، والبارودي ، والمويلحي ...الخ...

فلم يكن عجيبا ان يتأثر شكيب بنثره ، غير انه قد تأثر كذلك بابياسحاق الصابي ، وابن المقفع ، وابي بكر الخوارزمي ، والهمذاني ، وابن خلدون وغيرهم . وفي هذا الباب رصد لكثير من رحلاته ... وقبل ان يطوي المؤلف اوراقه في هذا الباب ، عاد بنا مع شكيب من تطوافه الى الوطن.. ليعقد تعارفا سريعا بيننا وبين زوجته واولاده .

اما الباب الثالث فهو مجال دراسة خصبة لجانب من جوانب شكيب الادبية المتعددة .. فقد كان شكيب ناثرا مجودا ، ذا منهج خاص فـي النثر ، كما كان شاعرا مبدعا .. يجمـع الى ذلك سعـة افق الناقد ، وبراعة قلمه ، وحسن تذوقه ، ثم هو بعد ذلك لغوي صاحب دراسات لغوية ثرية .

اما النثر فيلم به الاستاذ الشرباصي الماما متسع الجنبات .. وقد كان الاسلوب في عصر شكيب يميل الى المزاوجة في العبارة ، والولع بالسجع والميل للتراكيب القديمة .. محاكاة لابن المقفع ، وعبد الحميد الكاتب ، وابن العميد ، اما شكيب فقد مال الى قصر الجمل ومتانتها .. ومال الى السجع في مطلع حياته الادبية ، مجاراة لعصره .. لكنه كان يميل الى التخلص منه احيانا ، ويشيع في اسلوبه الاقتباس من القرآن الكريم او كما يعبر الاستاذ المؤلف : « حرص على الجملة القرآنية » تماما كما كان يحرص مصطفى صادق الرافعي .

ومن الملاحظات القيمة هنا ، ما يشير اليه المؤلف من شيوع ظـاهرة صوتية في كتابات شكيب ، وهي جلجلة العبارة اي : « تضمنها ألفاظا فيها شدة صوتية ما عند نطقها ، او طول في مبناها يقصده المتكلم لتقوية معناها » .. وظاهرة لغوية اخرى كثيرا ما يعني بها دارسو فقه اللغة.. وهي : « الافتراض » ... والافتراض ظاهرة شائعة لدى معظم الامـم المعاصرة ، وغير المعاصرة . ولم تجد اية امة ناهضة باسا من اللجـوء اليها .. وهذا النوع الذي اعنيه ، والذي تهدف اليه ملاحظة المؤلف : هو الافتراض في الاساليب ... وقد شاع لدى الادباء الذين نهلوا من الثقافات الاجنبية ، وانتشر اليوم في المجال الادبي ، ولغة التخـاطب عـلى حد سواء ... وجرى عـلى قلم شكيب سنـة ١٩٣١ في كتابه : الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج الى اقدس مطـاف ... من ذلك قوله : « من الاماكن الحجازية الملأى بالمستقبل » .

وهكذا تطرد الدراسة الفنية لنثر شكيب : سجعه ، وترسله، واقتباسه من القرآن ، وجلجلة عباراته ، وميله للتكرار والاسهاب .. امـا لقب « امير » فيناله بمبررين : مبرر اجتماعي ، حيث كان من اسرة «ارسلان» وهم امراء لبنان ، ومبرر ادبي ، وهو الذي شاع وانتشر ، حيث سمي « امير البيان » ، وكان صديقه احمد شوقي « امير الشعراء » ، وان كان قد جمع اللقب بينهما في المنزلة الادبية ، فقد دنا كل منهمـا من الاخر حين انعقدت بينهما صداقة قوية ، حتى انه ما يموت شوقي عام ١٩٣٢ حتى يؤلف شكيب كتابه : « شوقي او صداقة اربعين سنة » .

وكان اول ذكر للقب امير البيان ، في رسائل السيد رشيد رضا الى شكيب ، عام ١٩٢٤ ، وان كان قد لقب بالقاب اخرى مثل : كاتب الشرق الاكبر ، واديب العصر ، ونابغة الزمان ... الخ.. فقد كان جديرا بها، حيث تعددت طاقاته وامكانياته ، يساند ذلك عزيمة قوية لا تلين ، حتى قال عن نفسه : « فانت ترى ان همتي همة شباب لا همة شيوخ » فقـد ادركته الشيخوخة ، لكنها لم تنل من قوته الفنية ... وينضاف الىذلك انه كان لا يتقاضى اجرا عن مقالاته ، وانه كان متدفق الوطنية ، حتى كان من اواخر الكلمات التي داعبت شفتيه قبل موته قوله : « اوصيكم بفلسطين » ..

وننتقل الى الباب الرابع من الكتاب .. لنلمس نفس الروح السابقة .. لكن الانطلاق هذه المرة مع شعر شكيب حيث يلم به المؤلف الماما دقيقا ، اعتمد على حسن تذوق ، ودقة فهم ، وقوة ذاكرة ... والديوان الاول لشكيب هو « باكورة » ، وطبع عام ١٨٨٧ ومنه شكوى شكيب :

فلله يـا دنيـا حيـاتك كربـة ... وفيك غراب البين ما زال ينعب
رأيتك محض الغش في محض قدرة ... فلا منك رهبان ولا فيـك أرغب
واني وان ضـاقت عـلي مـذاهبي ... لديك فصدري منفنائك أرحب
أرى بك من نكدي وصبري عجائبـا ... واعجب من حالي وحالك أعجب

وقد تناول المؤلف الديوان بالبحث فأشار الى المحسنات البديعة في شعر شكيب ، وتقليديته ، واقتباسه من القرآن الكريم ، ومحاولة صنع الملحمة ، حيث كتب قصيدة « معركة حطين » ، واخرى عام ١٩٣٠ اثر زيارته للاندلس ، موطن تراثنا الحضاري العريق في العصور الوسطى، وانطلق فيها متعديا مئة بيت . وما بين صفحة ٢٩٤ ، وصفحة ٣٠٤ ، نلتقي بقضية من اخطر القضايا التي شغلت بال النقاد ، واستولت على اهتمامات المعنيين بالادب ، دارسين وقراءا ، وهي شعر المدح، والتكسب.

وبمقدار ما يباح لنا ان نفسح في ذاكرتنا التاريخية مكانا مرحبا بشعر المديح الجاهلي ، وما بعد الجاهلي .. وبتحديد ادق .. الى ما قبل العصر الحاضر .. اذا ابيح ذلك قبل الان ، فانه سيكون من العسير ان يباح اليوم الا على حساب الفن ، ومعاييره . والاساس الذي ترعرع على صعيده شعر المدح هو ان سيد العشيرة او رأس القبيلة كان النموذج الذي يحتل دروب التفكير ، والتوقير آنذاك ، وبذا استحق حلل المدائح وزخارفها .. ومهما حاولنا التماس المبررات لشكيب ، وغير شكيب ان يجري على هذا النهج فانه يبقى بعد ذلك تساؤل هو : هل معنى ذلك ان شعره كان عبدا لمجالات التكسب به .. هل عادى عرائسه ، وشياطينه الشعرية ، وغفل عن اعماقه ، وهرب من عواطفه ، وتجاهل تجاربه ، ونسى معاناته ؟

انه يشير الى من عاب عليه وعلى شوقي ذلك اللون من الشعر ، ثم يدافع عن وجهة نظره ، مشيرا الى اصطفاء الملوك لشعرائهم ، ويجعل ذلك : « رمز الامة وعنوان الملة » .. ولكن رأيه يصطك بعدة ملاحظات وتساؤلات للاستاذ الشرباصي كان من اجملها في نظري استشهاده بابيات للبارودي ومنها :

الشعر زين المرء ما لم يكن وسيلة للمدح والذم

واذا كان المدح مظنة زيف العاطفة ، وسطحيتها فان الرثا ءينأى عن فطنة انطفاء العاطفة ، وبرودها ولعله من اجل ذلك ، لم تطل معالجة هذا الموضوع في الكتاب .

وفي ست صفحات تتجلى روعة التناول في بحث : الصورة الشعرية لدى شكيب . ولا يسع قارىء هذا الباب الا ان يعجب بحسن التناول وبراعته ، فقد اتكأ المؤلف على معايشته الطويلة لشعر شكيب ، فكان موفقا في اختياره ، وموفقا في دراسته الى حد كبير .

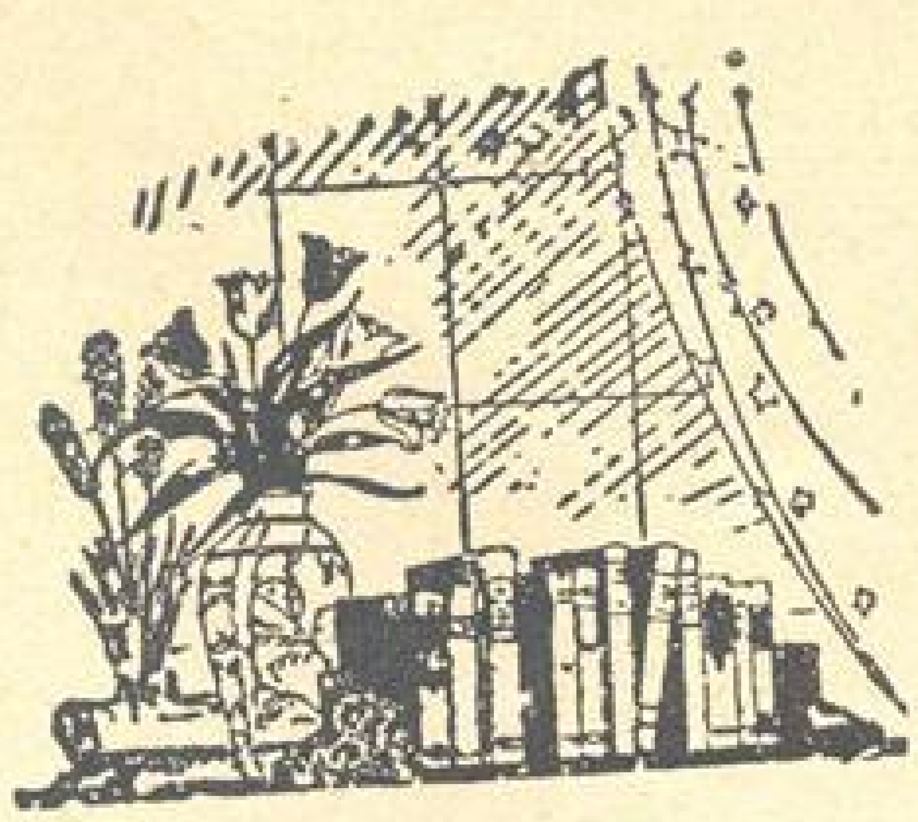
وقد قسم المؤلف الباب الخامس وهو « شكيب الناقد » الى شطرين. في الشطر الاول : تناول آراءه في الشعر ، وفي الثاني آراءه في النثر. والشعر لديه لا يحسنه الا اصحاب « السليقة الفائقة والطبيعة الصافية التي لا تتاح الا للاحاد ، ولا يؤتاها الا الافراد » .. وهو هبة من الله ، وقوة روحية يفيضها على من يشاء من عباده فتحلق به في سموات الخيال ، وهو يرى انه « ما من بوتقة لسبك الشعوب خير من الثقافة» وان « رابطة الفكر اقوى من رابطة الدم » .. ويكره الادب المكشوف وينفر منه . وفي نهاية الباب يركز المؤلف ، في خلاصة وافية ، آراء شكيب عن النثر والكتابة ، فهو لا يرى الخروج على قواعد اللغة ، ويقرر ان لكل عصر اسلوبه .

والباب السادس يناقش جانبا آخر ذا اهمية في حياة شكيب ، وهو شخصيته كلغوي .. اهتماماته اللغوية ، ومساجلاته ، وخاصة تلك التي كانت بينه وبين اليازجي دفاعا عن صديقه شوقي اثر نقد اليازجي لرواية شوقي « عذراء الهند » . ومن اخطر آرائه واكثرها قيمة تقريره ان كتب اللغة ليست هي كل شيء ، ونتيجة لذلك صحح كثيرا من استعمال الكلمات مثل : استاثر ، واحتمى ، وبارح ... الخ.

وفي الجزء الثاني يتعرض الباب السابع لكتب شكيب ، ما طبع منها، وما كان مخطوطا ، وما كان مقترحا . ثم نجد في هذا الجزء ملحقين : الاول : لرسائل شكيب ، والثاني لقصائده .. وهكذا نعود مع المؤلف من رحلته الطويلة التي كلفته السهر والسفر والبحث والتمحيص.. والتي استغرقت ـ فيما اعلم ـ سنوات سبعا من الترحال ، والمعاناة .. نعود بزاد كبير من المتعة والمعرفة .

وبعد .. فالمؤلف ليس بحاجة الى الاشارة الى طريق الاسهام الطويل الذي سلكه عبر سنوات عديدة قدم فيها للمكتبة العربية ما ينيف على العشرين كتابا ما بين الدين والادب والتصوف والتاريخ .

واكثر ما ينتزع اعجابي : ولعه بالطرافة .. فهو رجل دين ينطلق ليكتب في « حركة الكشف » ، وهو اديب يتعمق في التصوف ، والصوفية ، ثم يهدي المكتبة العربية منذ سنوات مؤلفه القيم الفريد : في عالم



الاديب

لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني
تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية
للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

•

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي
٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي
في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي
٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى
في الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنى

•

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر
للاعلان تراجع ادارة المجلة

•

تليفون : الادارة ٢٢٣٨١٩ Dir : 223819
المنزل ٢٢٥١٣٩ Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت ـ لبنان

•

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول
البير اديب

المكفوفين .. الى آخر ما هنالك من روائع سبقت الكتاب الذي بين ايدينا ... الكتاب الذي لم يكتمل منهجه ، ويتضح هدفه فحسب ، بل جمع الى ذلك كله ان دعم ركنا من الاركان الثرية في ميدان التاريخ الادبي .. وهنا تكمن دلالة هذا الجهد الكبير ..

القاهرة يوسف حسن نوفل

•

مآرب اخرى

مجموعة قصص قصيرة ـ تأليف ناشد سعيد ـ ٢٤٠ صفحة ـ منشورات دار الثقافة في دمشق ـ مطابع الانشاء بدمشق

لا تزال القصة القصيرة في سورية تبحث عن طبيعة ملائمة ، ومناخ صالح ، تبني فيه دعائمها وحياتها الانسانية الحضارية في كل مناخاتها الادبية والفكرية .. ولا يزال كاتب القصة القصيرة يركض وراء ابطاله، يتصيدهم في انفعالات عصبية مرهفة .. فيخرج بهم عن مالوف الحياة الاجتماعية الواقعية القاسية ، الى اطار فكره المشبع باضطرابات ثقافية مذهبية ، تلقطها من هنا وهناك ، دون تركيز على تصرفات الناس في مجتمعه الذي يظهر امامه في كل لحظة من تحركه في حياته اليومية الدائمة ..

فهو ـ اي الكاتب ـ لا تزال تغويه الافكار المستوردة .. بيد انه يحاول ايجاد هويته وتحديد سماته في قسرية بالغة .. فلو انه عاش جانبا من قصصه ، لأجاد ، ذلك لان الحياة ـ اي حياة واقعية ـ لا تخلو من الاثارة ، وان خلت من الحواشي الملهمة لمتاه الفكر .. اذ ان المفروض على من يعاني كتابة القصة القصيرة ان ينتقي ظاهرات الناس الاكثر حيوية وفعالية وانسانية في تبديلات التطور، ويعالجها في بصيرة حاذقة، وعقل ذكي حصيف ، وتجربة مباشرة صادقة ، فيها العذاب والالم ، حتى يترك لها الاثر البالغ في التصرفات والاعمال والاهداف .. لان من مهمة الكاتب ـ المفكر ـ ان يلتزم اظهار نزعات الحياة البشرية ويرصد نقاطها البارزة ، ثم يعطي الحلول الناجعة لها ، او يقدم الادلة على تخبطها ، او معاناتها للاحداث المعيشية والذاتية في اطار من الحيوية المجدية والسحر ، مستشفا من وراء ذلك احوال الانسانية المتداعية ، كي يرفع بها الى الافضل ..

والقصة ـ في رأيي ـ من انجع الوسائل الحضارية القائمة التي تبرز معالم وقضايا الانسان المعاصر ، وخاصة في بلادنا العربية .. انها الان (طفرة) ادبية تظهر في طبيعة الكاتب العربي ، يريد من خلالها وبواسطتها التعبير عن شؤونه وقضاياه ومشاكله عن طريق مدلول مسلسل للحوادث التي يعيشها.. هذا الطريق الذي وجد فيه الكاتب العربي بغيته وضالته الحديثة ، كنوع خاص من انواع الادب المعاصر .. مثله كمثل الشعر والمقالة .. والبحث او التحليل ..

.. وفعلا ، فقد حاول الكثيرون من كتابنا في سورية معالجة امورهم وقضاياهم الاجتماعية عن طريق كتابة القصة ـ وبخاصة القصيرة منها ـ فهل نجح هؤلاء ..؟ ام حاولوا ان ينجحوا ..؟ ام ما زالوا في سبيل البحث عن النجاح ..؟

اسئلة كثيرة تقف في حلوقنا ، نخاف طرحها .. لكننا نتجرأ، ونتجاوز حدود التردد ، لنقول : أن ثمة « محاولات » تطرح في سورية لتركيز القصة في هذه البقعة من الوطن الام .. وهذه المحاولات لو فكر صانعوها بما يدور حولهم من حوادث اجتماعية واخلاقية وفردية ، وما يصادفونه من تحولات ذاتية في الشخصية العربية الجديدة للانسان المعاصر في بلدهم ، ذلك الانسان الذي يحاول التخلص من قيوده التقليدية ، ومن رتابة ماضيه المقيت ، لكان لهم محاولات اكثر حدة ، واكثر حرارة ، من تلك التي لم يظهر منها حتى الان الا الاستغراق في الفردية والانانية ، والشهوة المتكالبة على النفعية المادية ، حتى تنشر اسماؤهم على الورق المصبوغ بحبر المطابع ، فكأن القضية ، قضية سباق في ميدان الظهور، والتبختر على حافة الشهرة ، ليس الا ...

ولكن ، ثمة شيء اهم في نظر الحياة ، يقضي بان نزج فيه بمشاعرنا، ورصيدنا الفكري والعلمي ، كي ينصهر في مرجل الحياة الحاضرة ، ثم نستخلص منه معادن متينة تلمع في الوجه العبقري ، وتتحدى شمس الخلود .

هذا ، وفي نظري بأن من أصعب الاعمال الكتابية الادبية ـ كتابة ـ القصة القصيرة ، ذلك لما في خلقها من تكثيف وضغط لابعاد الحياة وجوانبها العديدة ، ولما في وضعها من ذكاء يحتاج الى الموهبة والعلم ، والوعي الاكيد في الثقافة ومشاكل الناس فردا فردا ، ومجموعة مجموعة.

وبالرغم من فقدان هذه الادوات عند كاتب القصة في بلدنا ، ورغم عدم تمرس الكثيرين للحياة التي يمثلونها ويعكسونها في كتاباتهم ، فاننا لا بد ان نجد من يبرهن لنا عن محاولته فيها ، هذه المحاولة التي لا يخشى منها قط ..

فـ« ناشد سعيد » وهو من الذين يمارسون كتابة القصة القصيرة منذ سنوات، يغرينا للسير في طريقنا نحو ايجاد، او عثور على(المحاولة)، فقد ظهر علينا في هذه الايام بمجموعة من قصصه القصيرة ، ضمها في كتاب واحد اسماه « مآرب اخرى » . فما هي هذه المآرب ؟ يا ترى..؟ سؤال يترك ـ القارىء المثقف ـ في حيرة حيال هذه المآرب .. وهل يجوز لنا ان نسميها مآرب ..؟ ام هي عبارة عن تسلسل حوادث ، ممطوطة ، أحس بها ناشد ، فلفظها قصصا قصيرة في كتابه هذا ..

لقد دون ناشد في مجموعته فقرات عن حياته .. بانه : ولد في اللاذقية عام ١٩٣٨ وتطوع في الجيش عام ١٩٥٦ وقدم استقالته عام ١٩٦٠ وعاد فدرس الحقوق لمدة عامين ، ثم طلب لتادية خدمة العلم عام ١٩٦٢ وانهى خدمته عام ١٩٦٣ وانتسب مجددا الى الجامعة لدراسة الفلسفة ، ولكنه دعي لخدمة الاحتياط عام ١٩٦٤ .. من هذا التسلسل الحادثي ، الحياتي ، التبديلي ، يتبادر الى فكرنا ان في صفحات الكتاب مواقف تلهب حقا .. اذ ان هذا التبديل في حياة الجيش والدراسة في الجامعة لا بد وان يخفي في تكوينه وفوضويته انسانا عملاقا ، يسبر قلقه وضياعه .. ثم يعطينا النتيجة الايجابية الحتمية لهذا التراوح في الدارة الحياتية التي عانى الكاتب تياراتها الصاخبة القاسية ..

ان ناشدا ـ في هذه المجموعة ـ لم يقدم الينا شيئا من هذا القبيل، بل اعطانا نمطا آخر من القصص القصيرة كل واحدة منها تعبر عن نفسها، ضمن اطار حياتي خاص « فالقماط والوصية » قصة الانسان من المهد الى اللحد .. قصة سجنه وقيوده منذ ان يبدأ جنينا في بطن امه، الى ان يصبح رجلا ، فعاملا في الحياة .. ثم يتزوج ، ثم يصبح كهلا ، الى ان يموت ويدفن عاريا « بلا كفن ، فانه لم يعد يستطيع احتمال المزيد من الاقمطة ، اعفوه من هذا القماط الاخير على الاقل ..» وتنتهي القصة عند هذا الامر القاطع .. جميل ان ندخل في قلب المأساة .. ولكن الاجمل ان نتنتهي ببطولة ، ونتحدى ، لنكون الوجود .. الا ان معالجة «ناشد» لهذه الاقمطة جاءت عفوية ، بحيث استطاع رصد جوانبها ، النقلة تلو النقلة ، الى نهاية الشوط ، ولكن دون ايجاب هادف .. لان موت الفرد ليس نهاية العالم .. فموت البطل بعد تجارب حادة ، هو الاستمرار للحياة دون ريب .. والا فالاستسلام اجدى ، ولتخل الحياة من الالم ، ولكنها (محاولة) فيها اشياء من المعاناة لم تعمق بعد في القصة .. ولعل ذلك ما يوحي بعدم قدرة السرد القصصي عن تعميق جذور التجربة الفعلية ، بخلاف الشعر او النحت ، مثلا ..

بيد ان قصتي « الخدعة » و «الاخطبوط خارج الماء» تكادان تعبران على بناء واحد في الاسلوب ، والتكنيك الدرامي .. ولكن البناء الخارجي

يقتصر على ابراز الجوانب الخارجية اكثر دون الدخول في موضوعية (الحدث) بشكله وبعده الذاتي . اذ ان (الحادث) الذي ربطه ناشد في مصير البطل الذي حكم عليه بالاعدام (باسم الشعب) لانه ارتكب جريمة قتل، والجريمة هذه بحد ذاتها (جريمة) مرتكبها يستاهل الاعدام .. لكن الدافع على ارتكابها (حادث) بسيط .. او سبب جد تافه .. وضع ساعة عند الساعاتي .. ويماطل هذا الساعاتي ، او يخالف موعد اعادة الساعة الى صاحبها ـ المحكوم عليه ـ في الوقت المحدد بعد التصليح، فيقتل الساعاتي ـ ان البطل المجرم في القصة ـ يروي الحادثة،ويعترف بالقتل ، ولكنه يعتبر نفسه الضحية ، لم ..؟ لان الساعاتي ـ القتيل ـ خدعه ، وهو ، ـ المجرم ـ يكره الخدعة منذ ان كان صغيرا ، وقطعوا من جسمه (لحمة) في عملية الختان ..

ان ربط (الخدعة) بحادث قتل ، شيء لم يشعرني بصحة هذه المعاناة .. وعلى كل حال ، فالقصة هذه حشرت باسلوب تقريري محض امام منصة المحكمة .. اما الثانية ، وهي ((الاخطبوط خارج الماء)) فانها ايضا تعتمد على الحادثة البسيطة . فسلوى نموذج انثوي جميل للرسام ((وليد)).. الساقان في جسد سلوى هما نقطتا مركز الفرجار، وسيغزو الرسام اوروبا بلوحاته عن ساقي سلوى .. لان بلاده ـ وهذا في القصة طبعا ـ تعاني من العقم ، وعدم تقدير الفنان لما يعانيه من بؤس وعدم الاعتراف .. ولكن سلوى تحب كانتي . ان نداء غريزيا في اعماقها يتوجه كل يوم الى وليد .. واما وليد فانه يحب (الفن) .. وفي لحظة غامضة تترك سلوى وليد ، وتجف القريحة او تكاد عند الرسام.. ويحاول هذا لو يحظى بساقين كساقي سلوى ، ولكن دون جدوى .. وبينما يكون وليد وصديقه خالد في طريقهما الى كلية الفنون ، وبعد ان يدلفا الى سيارة وقفت امامهما بمحاذاة الرصيف .. يقول احدهما للسائق : اسرع الى كلية الفنون الجميلة في شارع بغداد .. ويسرع السائق .. وفجأة يصرخ وليد : (ها هي سلوى .. لقد لمحت ساقيها..) ويصرخ في اذن السائق ((قف)) وينزل وليد ، ويركض بلا وعي ليقطع عرض الشارع الى الرصيف المقابل . فيصطدم بسيارة عابرة ، ويموت .. وتفغم (فتاة) رشيقة الساقين ـ وهي سلوى طبعا ـ فيما بينها وهي دامعة العين : ((حسنا .. كان يرغب دائما بالكف عن التزييف ، سوف لن يضطر بعد الان الى رسم الاخطبوط خارج الماء ..))

انا شخصيا لم استطع مقارنة العنوان بحوادث القصة التي انتهت هذه النهاية السينمائية المفجعة ، ولعل صديقي ناشد اراد شيئا آخر، رمزا .. غموضا ..؟ لا ادري . ولكن في القصة الكثير من المواقف ـ الرومانتيكية ـ الحلوة الشيقة ، والاثارة لكل شاب ، بيد ان (الحادث) فيها يكاد يكون مستنفدا مع حادث جريمة القتل في ((الخدعة)) والتي كانت مسبباته غريبة ، كما هو الحال في ((الاخطبوط خارج الماء)) بالنسبة لمصرع وليد وظروفه ..

في المجموعة خمس عشرة قصة ، ولا بد من ان تكون عند ناشد سعيد الان ، هي خير وابقى ، ولكن بالنسبة لي ، فقد انسجمت مع عدد منها ك ((سائق الترام)) واعتقد بانها القصة الوحيدة التي التصقت بي التصاقا واقعيا ، كما انها الوحيدة التي جعلتني ارتبط بدمشق، المدينة التي عشت مراحل تطورها منذ ما يقارب الثلاثين عاما .. ارتباطا وجدانيا وحنينيا ، ف ((المرجة)) و ((القصاع)) وقضبان الحديد التي كانت للترام ، واندثرت الان تحت الاسفلت في شوارع دمشق الجميلة الرشيقة . .كل هذه المعالم قد غادرتني الى حيث كوى الذكريات ..

ان قصة ((سائق الترام)) هي قصة العامل .. اي عامل في الشعب الكادح ، يعيش اجزاء عمله جزءا جزءا منذ دخوله بوابة الزمن العملي، حتى خروجه منها ، متقاعدا ، وناشد سعيد ، استطاع ان يرصد لنا كل الجوانب الواقعية الحياتية التي يعيشها سائق ترام في دمشق خلال اعوام واعوام . فكان ناشدا كان فعلا (سائق ترام) ولعله عاش فترة يراقب هذا السائق بين القصاع والمرجة ، وبين المرجة وحي الميدان ..

انه مصير واقعي جديد يربطه ناشد بسائق الترام ، ونهاية هادئة لبطل قصته هذه ، فيها تحفز من جانب آخر لحياة افضل .. اذ بعد ان يمل السائق حياته ، يقول وهو يقذف الى الخارج ببصقة كبيرة تجمعت تحت لسانه من نافذة الحافلة التي الى يساره : ((تفوه .. دنيا مثل هذه الحافلة .. مزمار يوقفها .. ومزمار آخر يجعلها تسير ..)).

ان هذا التحكم اللاذع من جانب السائق لحياة رتيبة تمشي على قضيبين حديديين اعواما واعواما ، لجديرة بان يتمرد عليها الانسان، وان يتغلب عليها ، لعله يلقى افضل منها . انه الطموح ، والطموح خلاق ، وسائق الترام هذا يترك في خيالنا واعماقنا رغبة في الاستمرار في ديجور الحياة حتى نلتقي بالنور لا محال ..

ان قصص ناشد ـ في رأيي ـ يمكنها ان ترسم لنا حياة واقعية في بعض مناخاتها الراقية ، لو تصيد لها الحوادث الخصبة التي تقع بين ظهرانينا وفي مجتمعنا التقدمي الباسل الذي يحاول الان نبذ أقمطته التقليدية ، والتخلص من انشوطته البالية .. انه ـ بحق ـ يستطيع ذلك ، اذا رصد الوقت الخصب ، والوعي ، وانتبه الى متطلبات الافراد الجزئية التي تنعكس على سمات المجتمع العامة .. انه يستطيع ان يكتب لنا قصصا ذات طابع واقعي جيد ، لان الذي يكتب ((القماط والوصية)) و((اعواد القنب)) و((الغيوم على الارض)) يستطيع ان يعطينا نماذج قصصية حية ، بلا شك ..

واخيرا ، لا آخرا ، آخذ على ناشد تكراره لكثير من الكلمات ـ المفردات ـ ورصيده ـ على ما يظهر ـ منها قليل ، ففي قصة واحدة ((القماط والوصية)) تكررت كلمة (شد) كثيرا ، ومع هذا فناشد من الشبان الذين لا يحاولون استيراد الافكار ، ومن ثم صهرها في رمزية باهتة .. بل يمكن ان نعتبره من الذين يحاولون من جوانب المجتمع بطرف جناحيه الصبغين باكثر من لون حلو هادىء ، ترتاح اليه النفس والعين والقلب معا .. ولكن على شرط ان لا ينتهي بنا الى فواجع كلاسيكية لابطاله في المستقبل لان اجمل ما في الحياة الاشراق، والاستمرار في تمرد بناء رائع . ولناشد الان مني تحية حنان وتشجيع .. انها تحية المآرب الادبية الاخرى ..

دمشق

اسماعيل عامود
من اسرة تحرير المجلة العسكرية